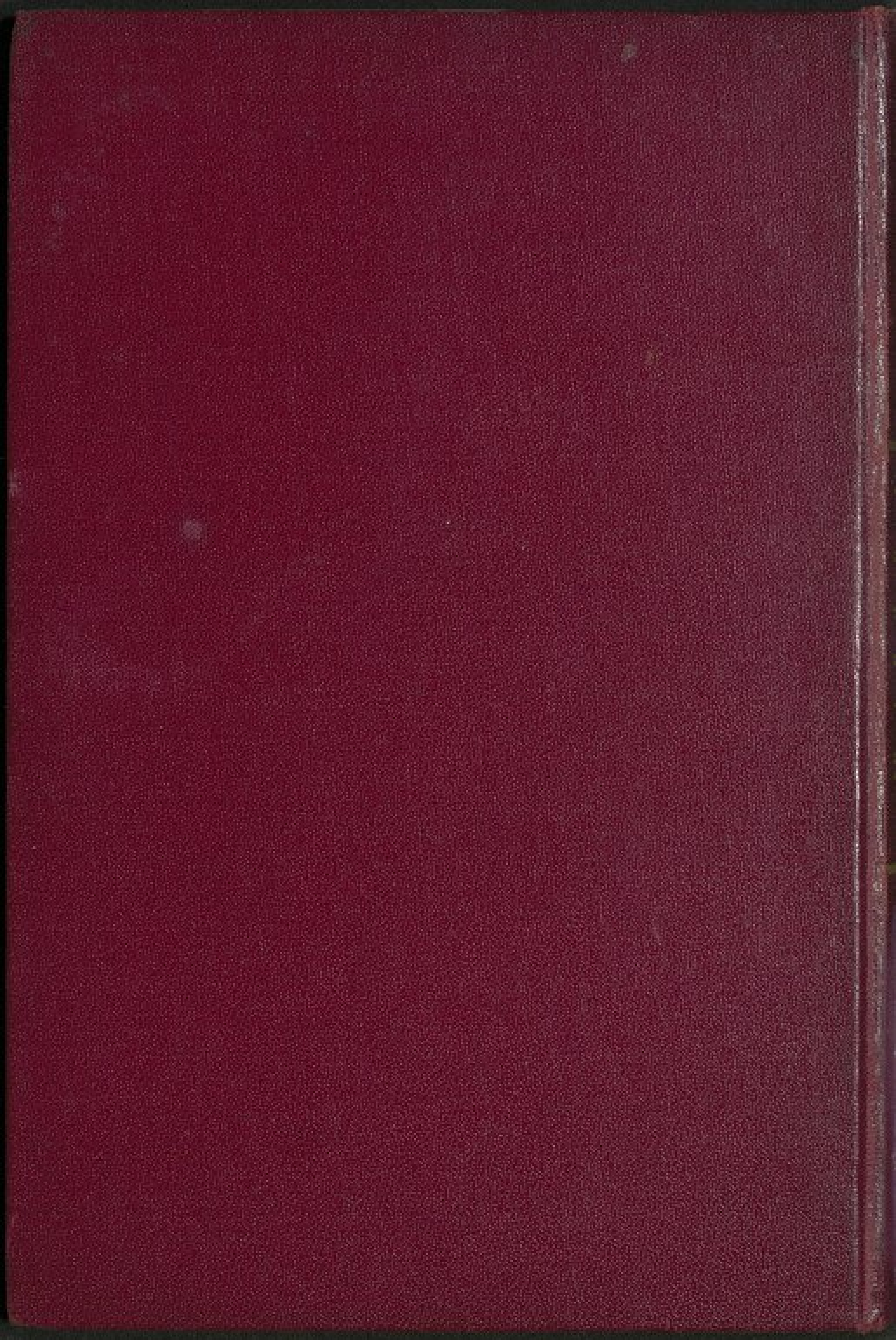
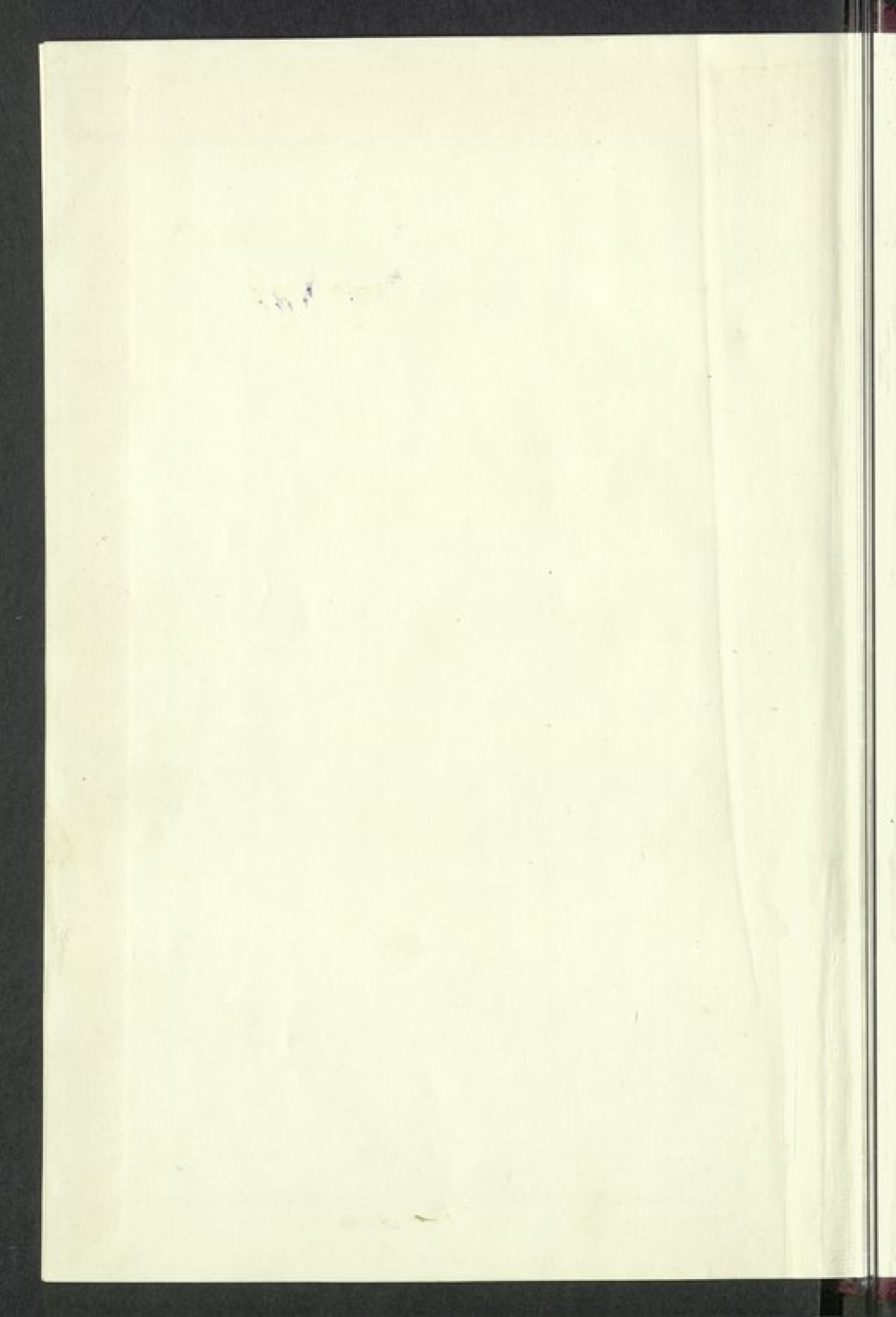
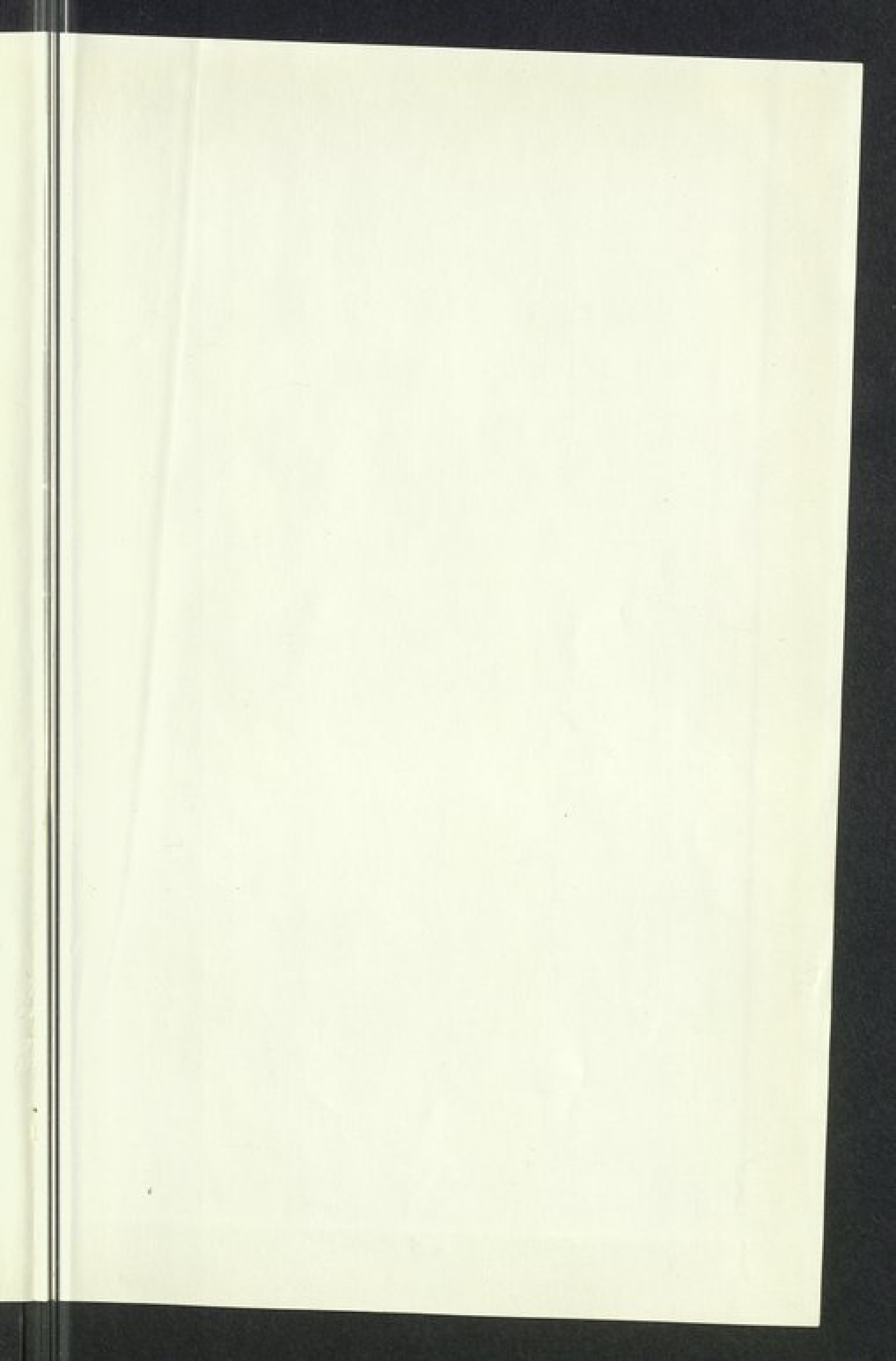
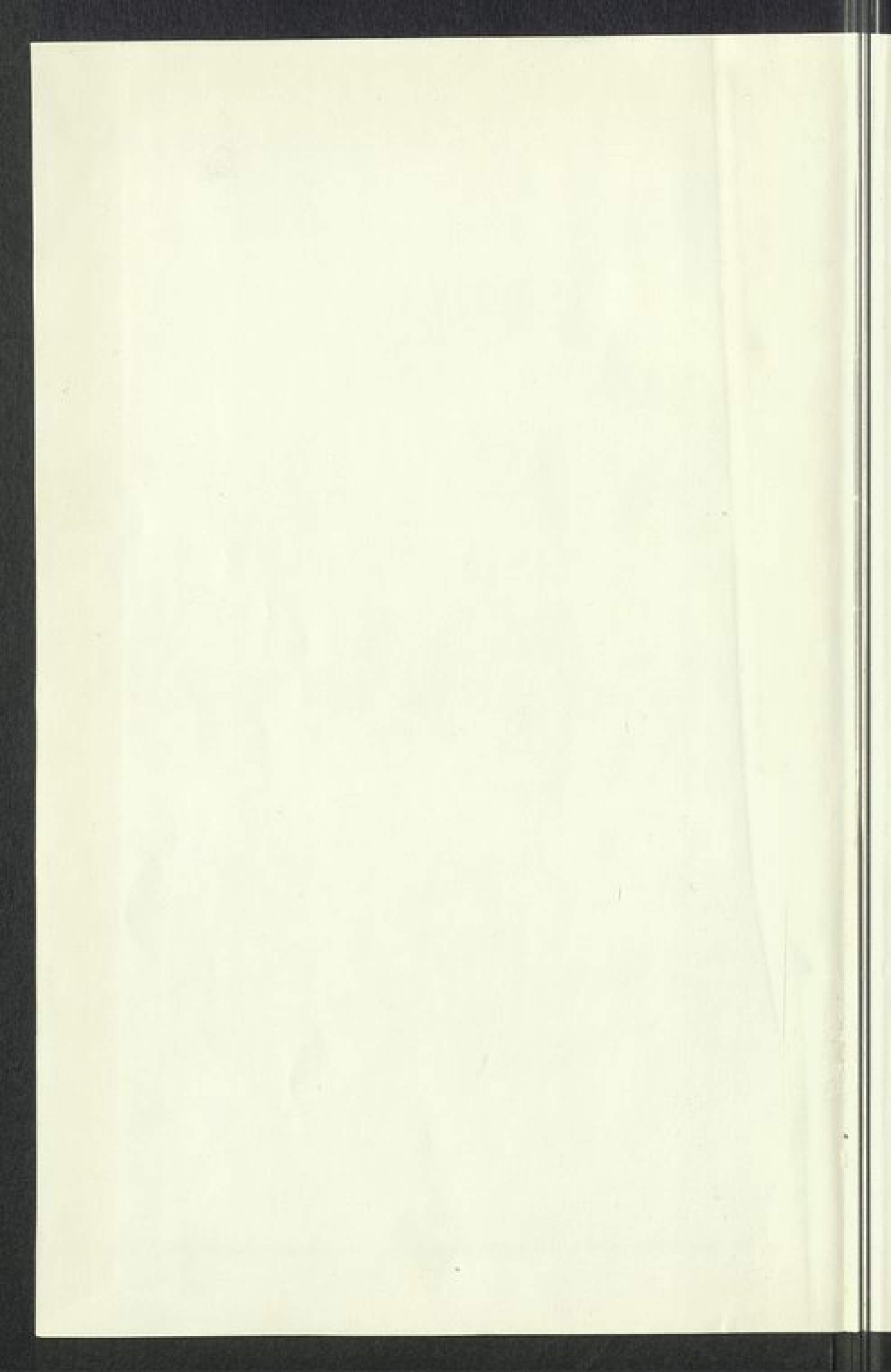
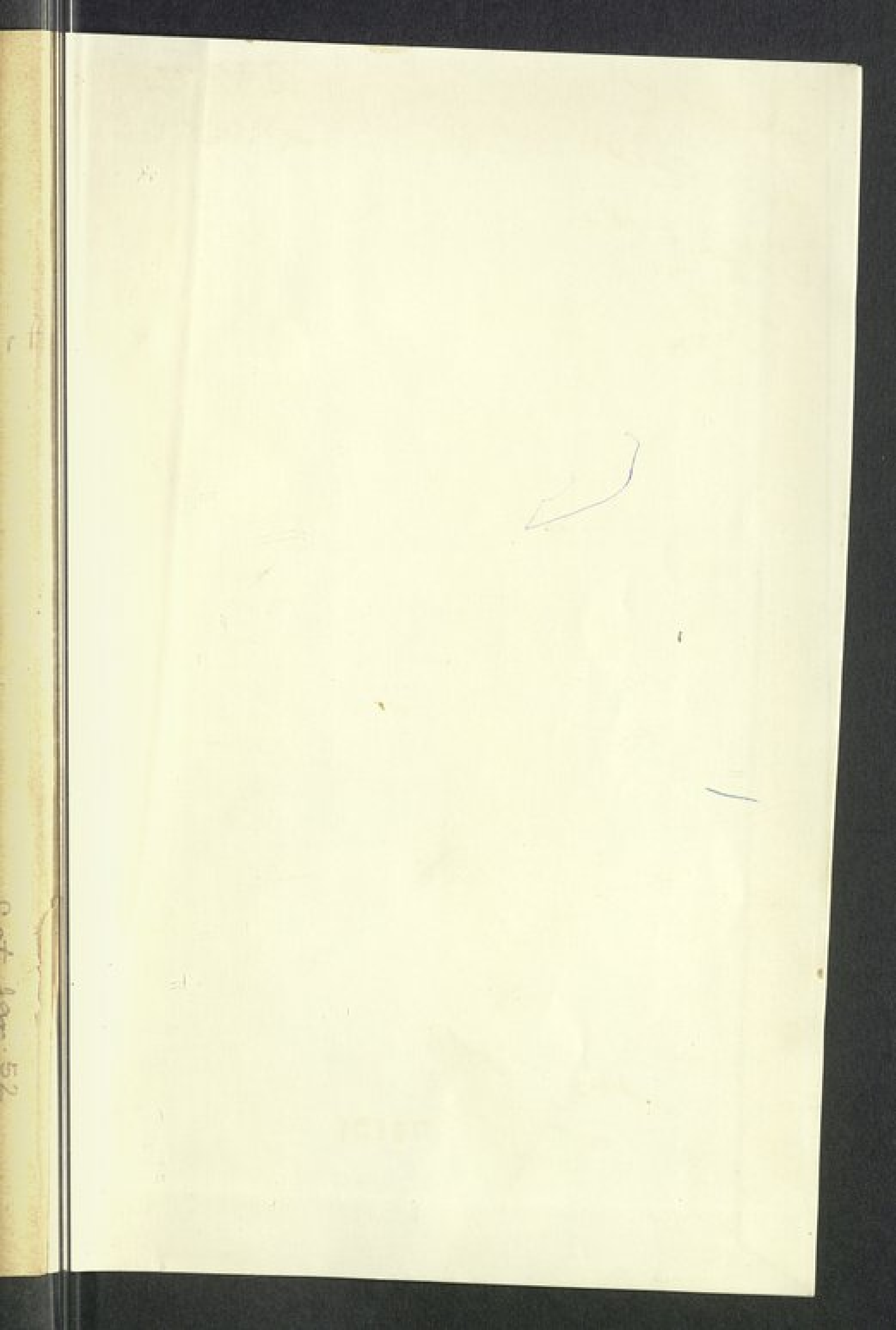










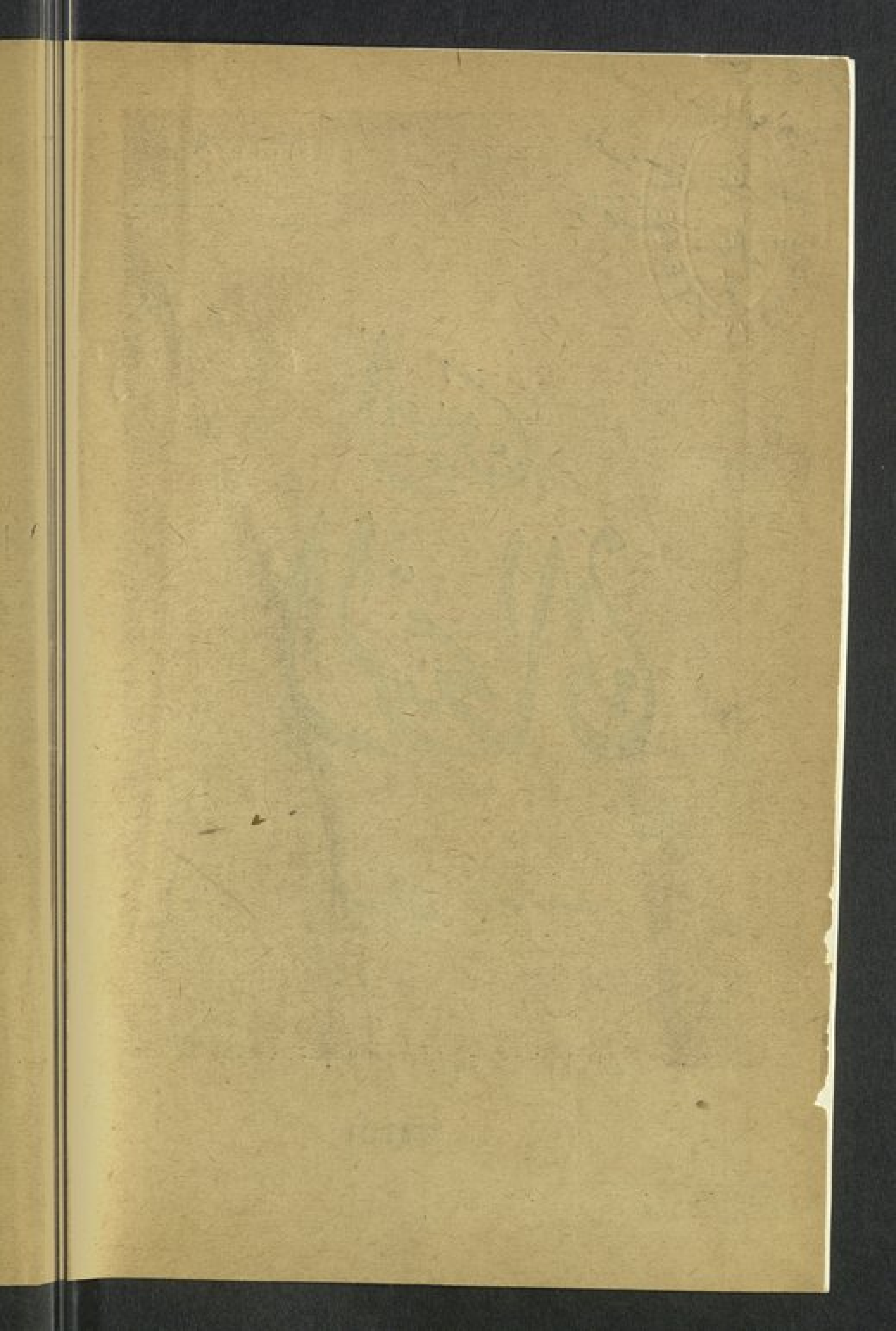
جميل جبر

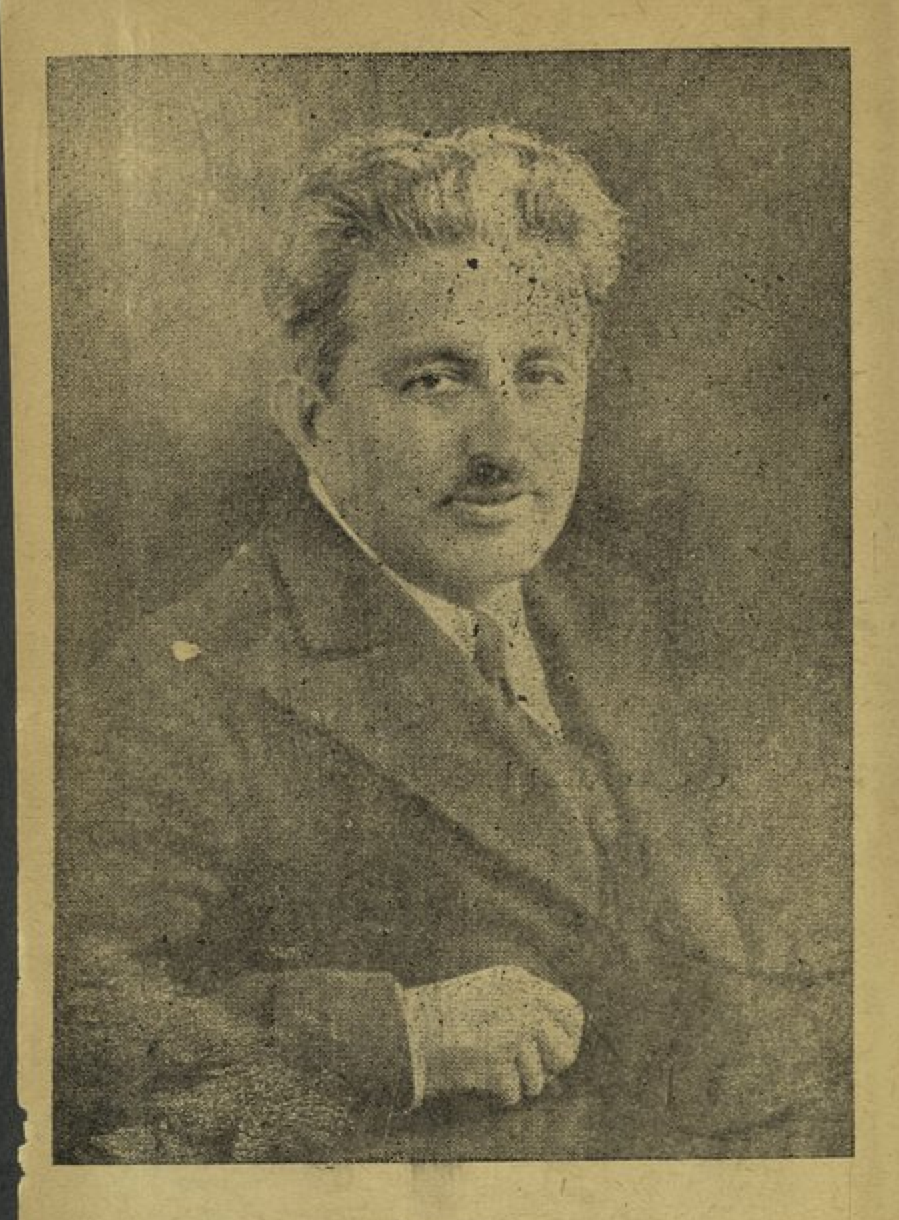
أمين الريحاني

الرجل والأديب

١٩٥١

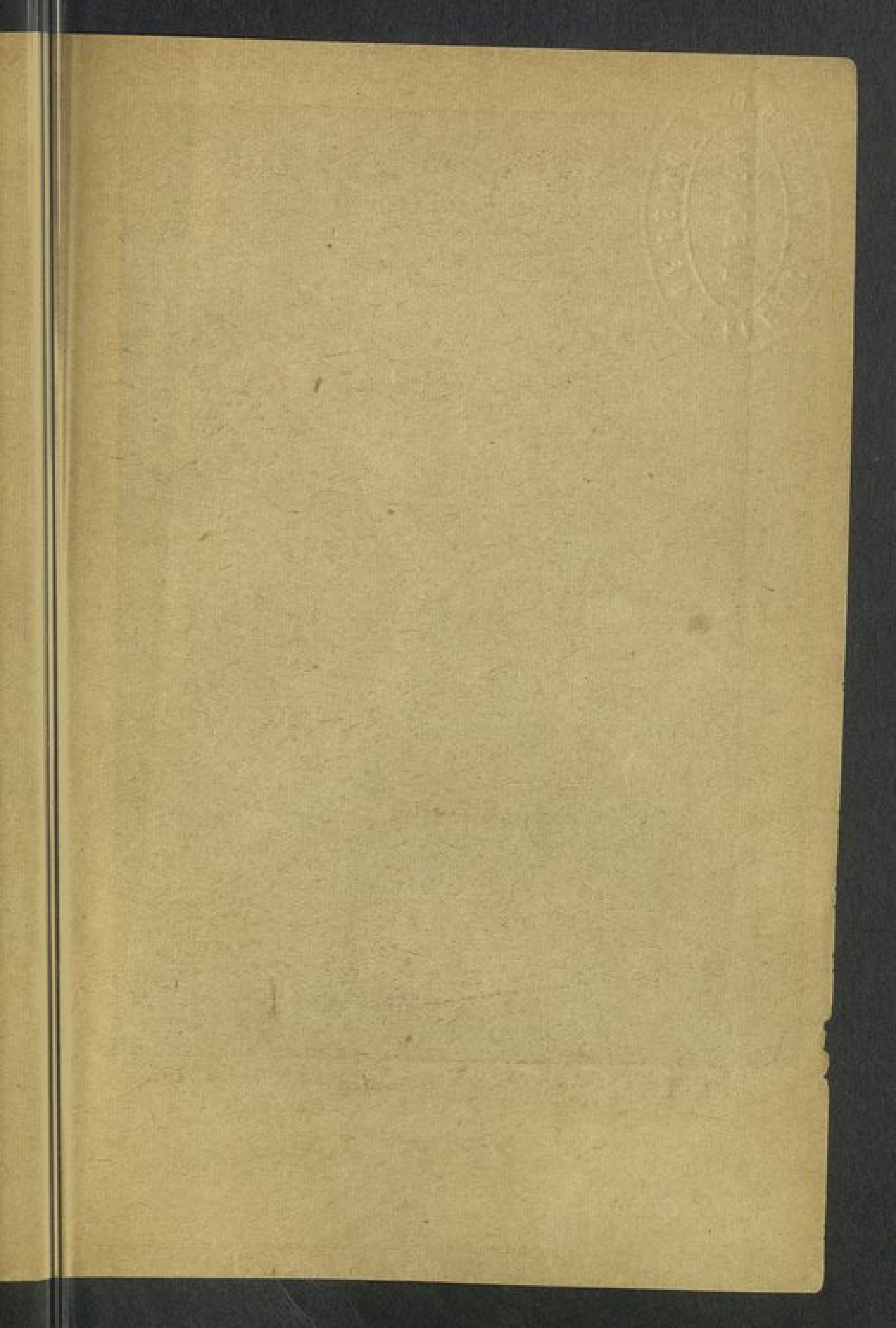
مطبعة فاضل وجميّل – الدوره





امين الريحاني

في آخر حياته



الى ج ...

والى الذين اذا عاشوا عاشوا مثلهم اقدم هذا الكتاب

جميل جبر

مراجع

عدا كتب الريحاني التي نشرت ام لم تنشر .

امين الريحاني — بقلم البرت الريحاني بيروت سنة ١٩٤١

ذكرى الريحاني — بمناسبة الحفلة التذكارية التي اقيمت سنة ١٩٤٥

الحقيقة اللبنانية — لعمر فاخوري بيروت سنة ١٩٤١

الباب المرصود — لعمر فاخوري

الغربال — لميخائيل نعيمه

البيادر — نعيمه

مقدمة — كراتشوفسكي

الريحاني في العراق — رفائيل بطي

الريحاني في مصر — الرافعي

اطواق الذهب (بالاسبانية) فاركاس فيلا

نحن الشعراء

The shape of things to come . Wells

مجموعات المكشوف ، الكشاف ، الضاد ، الكلمة ، الهلال ، الاديب ، المشرق المرأة الجديدة ، منيرفا ، المنار ، الهدى ، العرفان ، الدهور ، النداء ، زحله الفتاة عدا الجرائد اليومية .

بعد سنة ١٩٢٥ :

The print connoisseur
Europaische Gespräche für Aunvartige politik (1929)
Syrian world ; Aryan path
The open court of America
Asia ; Current History
Intelligencia

توطئة

لما كان الرجل والاديب لدى الريحاني يتداخلان يتكاملان فيؤلفان وحدة متماسكة الاجزاء متجانسة الفعالية ، رأيت ، وانا احاول درسه ، ان اعايشه ، خطوة خطوة، من مهده الى القبر وانفذ الى اعماق ذاته متلمساً دوافعها المختلفة وانعكاسها في ما اخرج من مؤلفات ، وقد نظرت الى هذه كمجرد احداث بارزة في صميم حياته ، كيف لا ومراحل العمر لدى امين فصول في مجرى انتاجه ، وآثاره ، في معظمها ، دفقات من صميمه . فلذا رحت اتصل بذويه وجيرانه والادباء معاصريه التقط عنهم ما ترك امين من وجوده حياً لديهم خلال ايامه ، فاطلعني مفصلاً اخوه البرت واخته سعدى على اوضاع معيشته البيتية وتصرفاته الخاصة والعامة وعلى صلاته الودية بالمجتمع وعلاقاته بالناس ، كما حدثني قسطنطين يني ، جرجي باز ، عمر فاخوري ، حليم دموس ، الياس ابو شبكة وادباء آخرون عاشروا الامين في لبنان وفي الجزيرة العربية عما عرفوا منه وعنه من تفاصيل دقيقة وافية كشفت بعض مناحي الرجل المعقدة وافادني ميخائيل نعيمه ، امين الغريب ، ابرهيم الحتي وتوفيق الشرتوني عما علموه حوله وحول مختلف الاوساط التي تردد اليها وتفاعل معها ، هنا وفي اميركة ، لا يسعني في هذا المجال الا ان اعرب لهم جميعاً عن جزيل امتناني لما ابدوه نحوي من تشجيع وغيرة واهتمام هونت علي مصاعب المهمة .

وقد قضيت فضلاً عن هذا كله بعض الزمن في جو الفريكة الساكن، في قلب «الصومعة» (١) استوحيه، وهناك درست مؤلفات الريحاني في العربية والانكليزية حسب ترتيب ظهورها واطلعت على مرسلاته الخاصة وعلى اكثر ما كتبته حوله الصحف والمجلات والكتب في اللغات العربية، الانكليزية، الفرنسية، العبرانية، البرتغالية، الاسبانية، الالمانية، الايطالية، الروسية، الاسوجية، الدنمركية، اليابانية والهندية (٢) وقد عرفته جميعها، فقابلت بين هذه المصادر على اختلافها وعللت وبحثت واستنتجت، حتى تم لي ما بين يديك ايها القارىء الكريم، ولا ادعي فيه بلوغ المرام كله.

لقد حدتني على دراسة الريحاني عوامل واسباب شتى، اهمها اقرار بالفضل ضئيل، لذلك المعلم الوطني الذي نادى بالاستقلال عالياً جريئاً يوم كانت الاعناق ارخص السلع «ان عزاً في الممات لخير من حياة شاكية باكية تتوسد اليأس وتلتحف الخنوع»، لذلك المجاهد المصلح الذي بشر عن عقيدة واخلاص بالتعاون العربي في اقصى حدوده وبذل زهرة سنيه في خدمة العرب ورفع شأنهم، لذلك الاديب الانساني الموسوعي الذي جعل من ادبه غاية مثلى فعمل على ترقية الكائن البشري بهدي الحرية والخير والجمال والحق لا يغريه مال ولا تغره ظواهر واخيراً لتلك الصلة الوثيقة بين الشرق والغرب وذلك الانموذج الحي للاشعاع اللبناني عبر الاميال والقرون اللذين كانها امين في حياته وادبه.

هذي باكورتي، ادفعها اليك، دونما واسطة بيني وبينك، ايها القارىء الواعي، علها تعرفك ولو من بعيد بهذا الوجه الجذاب فاكون بلغت قصدي وقمت بواجب الجار.

بيت شباب في اول يناير سنة ١٩٤٧

جميل جبر

---

(١) مكتب الريحاني في الفريكة. (٢) استعنت [illegible] [illegible] اللغات الى العربية او الانكليزية.

نشأة مضطربة

ان وراء كل معركة ميداناً لمعركة اخرى و
كل فوز ما يدعو لاستئناف الجهاد

— الريحاني —

على منعطف واد مهيب فوق مغارة نهر الكلب « تنثر الطبيعة تحت قدميه الشتاء ، ازاهر الدفلى وتكلل رأسه ، في الربيع والصيف بازاهير اللزان» (١) قرية وادعة آهلة بكروم اللوز والزيتون والتوت ، لا تبلغ منازلها العشرين عداً . هنالك في الفريكة ولد امين الريحاني في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٧٦ .

ابوه فارس بن انطون بن يوسف بن المطران باسيل البجاني تلميذ مدرسة ر ينتهي نسبه الى بني سعاده في اهدن ، نزح جدوده الى بجه فانتسبوا اليها ثم غادرها عبد الاحد واقام في الشاوية — قرب الفريكة — حيث عرف بالريحاني لوفرة ال في جوار منزله وهو تاجر حرير ميسور ، حاد الطباع ، كريم الخلق ، يجسم اللبناني المتوسط المحافظ على التقاليد ، الساهر على مصالحه وعياله .

وامه ، انيسة ابنة جفال طعمه البجاني شيخ القرنة الحمراء ، تصرف اوقاتها «صائمة مصلية زاهدة متعبدة تقرع الصدر وتتردد الى الكنائس » (٢) وتع

(١) وادي الفريكة — (٢) من كلمة في احدى حفلات تكريم الريحاني بمصر سنة

تدبير منزلها والاهتمام بزوجها وابنائها شأنها في ذلك شأن القرويات البعيدات عن مرافق المدنية الزائفة. والفريكيون عامة كسائر لبناني الجبل، سليمو الطوية صليبو الرأي يسعون بجد كلي الى كسب خبزهم وتوفير اسباب الرخاء لذويهم. مواردهم ضئيلة اخصها زراعة التوت والكرمة وتربية القز والماعز والابقار، ثقافتهم بدائية لا تعدو كتابة الرسائل العائلية وقراءة المهلهل وبني هلال، اما سياستهم فعقيمة باطلة تنحصر في المحليات، قوامها تحزب اعمى لهذا المختار ولذلك الناطور او عليهما دون ان تراعى المصلحة العامة في حال من الاحوال، وهم الى ذلك يجلون خوري الرعية منهل الحقيقة في عرفهم ويقدسون اقواله كما انهم ينقادون صاغرين لمشيئة شيخ الضيعة رمز الكمال البشري مؤمنين بعدالته وسداد رأيه. وقد حافظوا على تقاليد جدودهم محافظتهم على شرائع الدين ونواهيه، يتشاءمون اذا زارهم عائد من جنازة واذا عوى الكلب ليلاً ونعبت البوم، يصغون باهتمام الى الخرافات، يعتقدون بوجود منازل يسكنها الجن ومبشرات تبشر بالخير ويصدقون اقوال المشعوذين و«البصارة براجه». سخافات [illegible] يوحيها ضعف التعليل والعقلية الساذجة. تلك هي باختصار اوضاع البيئة التي [illegible] فيها امين سني حداثته فكان لها رد فعل بليغ في حياته المقبلة.

٢

[illegible]رف امين منذ الصغر بحيويته الجائشة وشدة المراس، فكان ولداً مغامراً مولعاً [illegible]، يطوف في الغابات منذ الفجر ممزق الثياب حافي القدمين مع سائر الاحداث [illegible] يتسلقون الاشجار ساعين وراء اعشاش العصافير، يطاردون الفراشات بقبعاتهم [illegible]ون الازاهير لمذبح العذراء ثم يعود الى المنزل مهشم اليدين والرجلين والقنباز، [illegible]امه حالاً وتغير ملابسه وهي تؤنبه مرة وتصفعه مرات على طيشه المستمر.

[illegible]فق مرة ان رأى امين بغلاً مربوطاً بشجرة امام الباب فحدثته نفسه [illegible]ة، دنا من البغل وفك رسنه ثم صعد الى الخافة ومنهـــا الى ظهره، مشى

البغل متباطئاً ، متحققاً امره فنتل الصغير الرسن ففهم ذو الاربعة المذكور معنى ذلك وراح يخب ثم يعدو فتقلقل الفارس الصغير وهوى الى الارض وبينا هو بين الارض وجلال البغل رآه احد الجيران وهرع اليه فلمّه وحمله دامي الرأس الى امه » (١)

وتعصف رياح الشتاء فتتربع العائلة وجيرانها حول الموقد في الليالي السود ويجلس الامين على «شطيح» صغير ينصت بامعان الى نوادر جحا ترويها جدته العجوز او الى قصة الزير يقرأ بعض فصولها مترنحاً العم بو مخايل :

(يقول الزير بو ليلى المهلهل   وقلب الزير قاسي لا يلينا)

وتستمر قراءة القصة او رواية النادرة الى ساعة متأخرة من الليل والسامعون يمزجون ويقهقهون وامين يصغي معجباً فرحاً خلي البال .

***

ولما بلغ الفتى عامه الثامن ، ارسله ابوه الى كاهن الرعية مع اخته سعدى ليتعلما الابجدية ومزامير داود . . .

على مقعد كسيح ، تحت زيتونة قديمة في ساحة كنيسة مار مارون كان يجلس الاب مرقس يلوح بقضيب في يمينه يهدد الكسالى ويعبث بلحيته في اليسار ، وهو يتهجأ متثائباً « عند سعد ورد » والاولاد حوله على الحصيرة يرددون قوله كالصدى ذاهلين خائفين وقد ملوا ما يسمعون .

لكن هذه المدرسة لم ترق طويلاً ذوي الامين وقد توسموا فيه النجابة والاجتهاد ، فنقلوه الى مدرسة اخرى في جوارهم يديرها نعوم المكرزل (٢) درس فيها مبادىء العربية والفرنسية خلال عامين وقد عني به المدرس في اثنائها عناية خاصة لما لاحظ فيه من ذكاء ورغبة نادرين .

---

(١) الصبي المطوق ، من كتاب قلب لبنان - المخطوط -

(٢) منشىء الهدى النيويوركية فيما بعد

حدث اذ ذاك ان مر قنصل فرنسة بعين عار في طريقه الى بكفيا ، فلقن المعلم امينا خطبة فرنسية وجيزة القـــاها هناك مرحباً باسم المدرسة ادهشت جماعات السامعين فاعجب القنصل بجرأته ومنحه مكافأة جميلة وعرض عـــلى الوالد ان يعلم الخطيب الصغير في باريس على نفقة الحكومة الفرنسية ، لكنما الام لم تشأ ان يفارقها ولدها الحبيب ...

كان يعود امين من المدرسة مساء فيحمل كتابه ويذهب الى الوادي حيث يدرس امثولته في هدأة الطبيعة وقد صرف كل حيويته الى الاجتهاد ثم يعود الى البيت فيسهر على نور السراج الضئيل يطالع « الاجرومية » او يحل مسألة حسابية صعبة ، متعظاً بقول ابيه : الدارس غلب الفارس ، تنهاه امه عن انكبابه هذا خوف ان يضعف بصره فلا يبالي رغم احترامه اياها . ان انفته الفطرية ابت عليه الا ان يسير دائماً في الطليعة ، فكان مثار اعجاب عارفيه يتحدثون بامره بدهشة واحترام « ما البقه في قراءة الرسائل والسنكسار بالكنيسة انه لا يتلعثم بكلمة وما امهره في كتابة المكاتيب واجمـــل خطه » وهو الى ذلك يمشي الى الامام والايمان بالمستقبل اللامع يملأ نفسه .



قد يكون حب المغامرات وركوب الاسفار من طبيعة اللبناني ، انه قلق في بلاده يضيق محيطها عن طموحه فيولي وجهه شطر المهجر تتهيأ له فيه اسباب الصعود الى العلاء لا يعبأ بالمصاعب ولا يبالي بالاخطار .

فكر الريحاني في غده حائراً بما يشتغل ايتجر بالحرير مع ابيه وتجارة الحرير تنذر بالكساد ام ينصرف الى الزراعة ويقنع بخبزه اليومي شأن العامة من ابناء قومه . ولماذا لا يهجر الوادي ويسافر الى اميركة مع عمه عبده واستاذه بالامس نعوم المكرزل المزمعين عـــلى الرحيل وكثيراً ما اثرى اللبنانيون ولمع اسمهم في ذلك

القطر الفسيح . . .

فكرة راودت الريحاني الفتى عن نفسه فتدبرها بامعان وراح يراجع التاريخ والجغرافية ويستطلع احوال اميركة بفضول غريب وهو لم يكن يعرف عنها غير ما رآه ليلة عيد مار مارون في «صندوق التفرجة» من خزعبلات والاعيب .

ونمت الفكرة سريعاً في ذهنه حتى كادت تملي عليه عزمه النهائي لو لم يكن في السفر هجر ذويه الى ان يشاء الله ، فتردد مدة ثم اذعن تحت تأثير عمه وقد كان يكرر عليه دائماً قوله : « سافر معي يا امين فاما ان تعود غنياً وافر الجاه واما ان تموت هناك ، بئست عيشة خاملة في وسط وضيع » .

وعلى اول باخرة رست في ميناء بيروت ، ابحر الثلاثة عبده ونعوم وامين الى اميركة يشبعون نهمهم الى الثروة والمجد ، درعهم ثقة بالنفس لا تقهر وسيفهم عزيمة ماضية لا تعرف الكلل .

من بيروت الى مرسيليا الى نيويورك ، طال سفر الامين حتى جاوز الشهرين وهو يعاني صابراً اهوال الاوقيانس الهائج . ان احلامه المغرية هونت عليه مصاعب الزمان .

واخيراً ، هوذا تمثال الحرية ! هذه هي القارة الجديده وتلك هي نيويورك مدينة الغرائب والعجائب دورها تنطح السحاب « والوف من مداخنها تنفث في وجه السماء روحها الغازي » آلات وسرعة واحجام ودواليب وانواع من البشر من كل بلد وكل جنس وسعي الى الثروة لا يهدأ ولا يمل ... مظاهر ادهشت ابن الفريكة الغريب الساذج وعلمته ان في العالم غير الآب مرقس والشيخ اسعد والكرخانة والعنزة الكحلاء . . .

***

وفي نيويورك ، ادخل عبده الريحاني ابن اخيه اميناً مدرسة راهبات المحبة في نيوبرغ ليتعلم الانكليزية فيمسي قادراً على ان يساعده في العمل التجاري . ولم ينقض العام الاول حتى اقبل اخوه فارس واشترك في تجارته ، فاضطر امين الى

ان يغادر المدرسة ليقوم بوظيفة الكاتب عند عمه وابيه وكان قد الم قليلاً باللغة الانكليزية فراح يدير المراسلات وينظم الحسابات بنشاط بليغ ليوفر شيئاً من الوقت يطالع فيه بعض منتخبات مفسرة من اعلام الادب العالمي كان قد بدأ يتذوقها في المدرسة ، حتى اذا اعياه التعب العقلي اتجه الى النهر يختبيء في احد منعطفاته بصيد السراطين ويبتاع بثمنها الكتب الانكليزية القريبة المأخذ وقد كان آل الريحاني يقيمون ذلك العهد بقبو مظلم تحت مستوى شارع وشنطون تغمره المياه في الشتاء من كل جانب فيقضي امين ساعة وساعتين ينتشلها بالدلو الى ان تنهك قواه فينام وهو يرتجف من البرد وفي صدره نقمة متأججة عـلى « اولئك المتكئين على وسائد الريش المتسربلين بالخز والحرير » .

وينمو ولع الامين بالدرس يوماً فيوماً ويزداد تعلقه بصورة خاصة بشكسبير وفولتير وبيرون وروسو فيرغب في اقتفاء خطاهم في غده ولا غرو فقد وجد لديهم كل ما يسمو اليه امثاله الناشئون من فعالية وثورة وانطلاق بيد انه كان تاعساً معدماً حينذاك لا ينتهي من معالجة الارقام في نهاره الا لينكب على الدرس في ليله ويقوم بتنشيف المسكن فخطر له ان يخرج على هذا الاستمرار المرهق الذي ضيق عليه انفاسه وولد فيه القنوط فاخـذ يتعرف الى شبان الجوار يتناسى نفسه حيناً في مزاحهم ومساراتهم فعقبت الخطوة الاولى خطوات واذا الريحـاني المنكمش على ذاته يغدو بين ليلة وضحاها من رواد الملاهي يسكر ويطرب مجارياً رفاقه يبتغي تخدير شعوره الباطني ليذهل عما هو فيه من ضائقة معنوية ومادية . ولا تلبث البيئة اللاهية ان تؤثر تأثيراً حاسماً على الشاب البائس الطري العود وتقولبه حسب اوضاعها ، وتتفتح عليه عيون ذويه فيحنق ابوه عليه ويهدده بالطرد اذا استرسل في مجونه وجاوز الساعة العـاشرة في سهراته فكان يمتعض امين في قرارته ويصعد الزفرات دماً فوق المخدة كلما عاد الى نفسه وفكر ملياً بواقعه الاليم ولكنه كان اعجز من ان يقاوم دفعة واحـدة طغيان البيئة والعادة الذي كانت تغذيه رغبة الانفلات من مكبلات وضعه الحرج ،بل كان يستسلم مرة ويصمد مرة واتفق ذات يوم ان عاد من سهرته بعد منتصف الليل فطرق باب منزله طرقة وطرقات لكنه لم يسمع

جواباً اللهم الا صوت ابيه يرتفع من الداخل ساخطا : «ارجع من حيث اتيت». فانقبضت نفسه وجعل يصغي الى رجاء امه تلتمس العفو عنه حتى فتح الباب اخيراً واذن له ابوه ان يبيت ليلته في المنزل على ان يغادره عند الصباح ولا يعود اليه.

قضى امين ليلته هذه فريسة الكآبة لا يهدأ روعه ولا يستقر على رأي ، يستعرض ماضيه يوماً يوماً ويفكر في عمل مستقل يناسب ذوقه ويؤمن له الرغيف فخطرت على باله في فترة اليأس تلك فكرة التمثيل وقد كان رواجه مشجعاً ذلك الحين ، فما ان بزغ الفجر حتى حمل امتعته في حقيبة صغيرة وسار خافض الرأس دامع العين يجتاز شوارع المدينة قاصداً هنري دجويت الممثل المعروف الذي طالما تحدثت المجالس ببراعته المسلكية .

وصل الى الدار فانتظر بعض ساعات في صحنها يتمثل كيفيات المقابلة يهيء الاسئلة ويتكهن عن الجواب مستبشراً مرة وقانطاً اخرى حتى اذن له الممثل فدخل المكتب عرف بنفسه وطلب ان يلتحق بجوقة دجويت السيارة كمتدرج ، فتم له ما اراد . . . واذا هو في عامه السابع عشر يجوب انحاء اميركا يتوقع شهرة سريعة تثأر من قضائه .

اشترك في تمثيل هملت وريكاردوس الثالث مع هنري دجويت والسيدة روز اتنغ ووليوم اون وتوماس كولمان ، فابدى مرونة في الاقتباس ودقة في الملاحظة اكسبتاه اعجاب رفاقه الممثلين .

وهناك تأصلت فيه عادة اللهو الماجن تأصلاً غلب على ارادته المستضعفة وغدت لديه حاجة لا تقاوم فاطلق لشهواته العنان في ذلك الجو الموبوء ، حيث الملذات مغرية مغوية بعيداً عن رقابة ابيه الصارمة واقاويل عارفيه وفي مأمن من تبكيت ضميره وقد اخرسته ثورة الاعصاب ... سكرة متواصلة لم يكن يصحو منها الا ليراسل امه ويخبرها مفصلاً بجميع تنقلاته وانتصاراته بغية اكتساب عطفها ونوالها فتجيبه بدورها وهي تلج في طلب رجوعه الى المنزل واستغفار ابيه .

لاثم الفن التمثيلي ، وما يتيح من حرية للعابثين مزاج الفتى الشاعر ، فوطد العزيمة على المضي فيه الى النهاية ، ولكن ! هيهات ان تحقق الايام احلام الشباب افلست الجوقة عقيب احدى حفلاتها في كنستس سيتي غربي الولايات المتحدة حيث مثلت رواية بندكت ارنولد الخائن المعروف في تاريخ اميركة فاضطر « الابن الشاطر » الى ان يعود الى ابيه نادماً تائباً يلتمس رضاه بعد سكرة دامت ثلاثة اشهر ، فاستأنف العمل في المحل التجاري والمطالعة في الليل وقد عول على ان يجحد ماضيه المضطرب ، يقطع كل صلاته به وينظم حياة جديدة مستقرة مثمرة كما عول على درس الحقوق في اوقات الفراغ .

وهكذا انقطع الممثل الخائب الى مدرسة ليلية جاحظ العينين سقيم الجسد كبير التفاؤل يتهيأ لامتحان الحقوق فجازه بنجاح سنة ١٨٩٨ ودخل الجامعة النيويوركية تفعمه الثقة وهو يعتقد ان ابواب النعيم فتحت مصاريعها امامه ولكن لم تطل به الحال حتى بدد الواقع اوهام خياله فاذا عالم الحقوق لا يختلف جفافاً وقحطاً عن عالم البرد والفاتورة الذي حاول التخلص منه فتملكته سويداء القنوط وبدأ يشعر من جديد بوحشة الغريب في بيئته المنزلية التي لا يصله بها اي تفاهم روحي او تجانس في الامزجة . طالب علم شاعر مقاييسه المثل العليا في الحرية والجمال بين تجار من الطراز القديم يدأبون على جمع السنس والدولار ولا يهتمون لغيرها من امور الحياة . فكان اذا مرت به فترات كآبة شديدة يخمد الى كتابه او الى قلمه يدون خواطره الشاردة ويرسل بعضها الى جريدة الهدى التي كانت تصدر في فيلادلفيا يومذاك ، مقالات صغيرة فيها نزق الشباب ، لغتها ركيكة لا تعرف للنحو اصولاً ولا للصرف صيغة يعييه التعبير في العربية فيستعين بانكليزيته وهنالك في المطبعة كان محررو الجريدة يهذبون عبارته ويصححون التراكيب . ولكم تشوق صاحبنا حينذاك الى الافصاح عما تلجلج في صميمه في مؤلف مستقل فخانته امكانياته الكتابية وغمغم قائلاً : « يروى عن بعض الكتاب والشعراء انهم الفوا الكتب وهم احداث وانا قد بلغت الثانية والعشرين ولم اكتب مجلداً » .

انه المؤلف الشاعر بدأ يستيقظ في الريحاني بعد ارتداده عن الضلال يحمله على تنمية مواهبه العقلية والاستفادة من وقته اقصى المستطاع ويصرفه الى عالم داخلي اغنى وافعل من العالم الذي طالما بذل فيه حيوية صباه .

٤

ارتدع امين عن طيشه المستحكم ونقم على ماض عقيم لم يفده شيئا وجعل يتهيأ للعمل الجدي بعد ان حان الاوان ليحقق ذلك الحلم الادبي البعيد الذي تمكن منه وهو يطالع محركي عقول الاجيال فتولدت لديه رغبة ملحة الى التفتيش عمن يشعر شعوره ويشاطره اساه عندما يضنيه العمل الفكري، فاختار نخبة من المهاجرين اللبنانيين والسوريين اخصهم امين الغريب ، الامير يوسف ابو اللمع ، سليم سركيس نجيب دياب ، الياس يعقوب انطون،وديع الباحوط ، سليم كسباني وداود فليحان يتصل بهم كلما عرض له امر فيتشاكون فيما بينهم ما يعانونه من غرابة المحيط المادي الذي يعيشون فيه ، ويتعاونون على حل مشاكل يومهم وتهيئة غدهم .

اما الهوى مروض الشباب فلم يعد له شأن يذكر في توجيه حياته كمن قبل وقد سخره لخدمة طموحه الفكري فتحول ولعه بارتياد الاندية المشبوهة الى مجالسة الادباء والفنانين ساعات فراغه ، يتذوق احاديثهم ويحاول السير على غرارهم بيد انه وهو حديث نعمة في هذا الحقل كان يشعر بعجز صارخ عن مجاراة اولئك الموهوبين فيئن كبرياؤه وتثور عزة نفسه فيعمل صامتاً على استكمال شخصيته لا يعبأ بمتاعب الجهاد . وقد كان شعوره بقصوره هذا اشد حافز له على تقدمه المطرد نحو العلاء .

كان يرجع عادة من محله التجاري الى المنزل عند الساعة السادسة فينكب على المطالعة الجدية في وحدة مطلقة وكان يهتم يومئذ بنوع خاص برينان وتين وكرليل

ودروين وفولتير وروسو وهيوم وقد كانوا اسياد الاسواق الفكرية هنالك فيدون ملاحظاته بصددهم على هامش الكتاب ولم تكن تخلو غالباً من الاعجاب البليغ بطريقة اقناعهم اللينة المخدرة . ولما كانت حالة ذويه المالية لا تزال متقلقلة بقي امين في المنزل القديم وقد ادخل عليه بعض تصليحات منعت تسرب الماء اليه ولكنها لم تصد عنه تيار الرطوبة الذي تغلغل تأثيرها في رئتيه وقد اضعف بنيته الجهاد العقلي المتواصل والسهر المفرط ، فذبلت نضارة وجهه واخذت تجف حيويته يوماً فيوماً فاشار عليه الطبيب بالعودة الى لبنان ليستشفي بطبيعته الهادئة وهوائه المبرىء .

***

عاد الامين الى لبنان يائساً عليلاً فقير الحال بعد ان كان يحلم بالرجوع ثرياً حليفه الجاه . لقد اراد ان يجعل القدر مطية لاحلامه يسخره كيف شاء فجمح به هذا القدر الحرون واذاقه بالجفاء الشامت مرارة الخذلان .

وصل الى بيروت في اوئل صيف سنة ١٨٩٨ فاقام في بيت جدته سعدى الطيبة المجبرة في – قرية الشاوية – يعب انفاس الوادي السليمة ويسر الى الطبيعة بآلام خيبته . فلم يلبث ان تعافى في ظلال الراحة الساكنة واسترد حيويته فتلألأت آمال امسه امام عينيه من جديد .

اتيح للامين في هذه البلاد ان يطلع على تأخرها الاجتماعي الفاضح فساءه جمود اهلها وتقاعسهم عن العمل التقدمي وامضه تمسكهم بتقاليد عقيمة تلجم رقيهم ولا غرو فقد ترعرع في الولايات المتحدة موطن الحرية الشاملة والتقدم المستمر وتعود التساهل والتجدد الجريء فولد فيه التفاوت بين البيئتين نقمة جامحة على الرجعية والتحجر حمله على ان يعلن ثورته على التقليد والخمول ويبث المبادىء الاجتماعية الحرة الراقية التي اعتنقها وعاشها في العالم الجديد فعول عن درس العربية لغة البلاد ليحقق مبتغاه .

دخل المدرسة اللبنانية في – قرنة شهوان – يعلم الانكليزية تحصيلاً لعيشه ويتعلم العربية (١) في وقت معاً فوقع نظره هنالك على ديوان المعري ودرسه باهتمام ، كأنما لاءمت مزاجه الفطري تلك النزعة البادية لدى الشاعر الى الشك والتمرد والاستقراء والزهد فكان يتأبط ديوانه كل مساء ويتجه الى غابة تشرف على الساقية الفاصلة بين الشاوية وبيت شباب وهنالك على صخرة ملساء يظللها الصنوبر الوارف الشامخ كان يجلس امين الفتى المتأمرك ، النحيل الجسم الانيق الهندام المسدل الشعر ، الحليق الشاربين وقد ارتدى قبعة محلية عريضة الاطراف وحمل نظارتين مذهبتي الاطار يتكيء حيناً على ذراعه اليمنى وحيناً يرتمي على مرفقة مستديرة و كتابه يضطرب بين يديه .

لقد اوحى اليه الشغف المفرط بلزوميات ابي العلاء ان يترجمها نظماً الى لغة الانكليز ليعرف الغربيين بفيلسوف المعرة وعسى يبتسم له الزمان فيذيع صيته في العالم الانكلوسكسوني ويملأ الفراغ السحيق في نفسيته او لم يشتهر من قبل الاديب الارلندي ادوارد فيتزجرالد عندما ترجم رباعيات الخيام ؟؟ فما الذي يعوقه هو اذن عن اقتفاء آثاره وعزيمته لا تعرف الخور .

٥

ازدادت الفكرة اختماراً في ذهن الامين يوماً فيوماً حتى اذا تماثل من علته في خريف سنة ١٨٩٩ سافر للمرة الثانية الى اميركا يحمل «ابا العلاء» وهنا تنتهي المرحلة الاولى من حياة اديبنا ، مرحلة دراسة وسفر وخيبة ورجاء واختبار هام خلالها متردداً يفتش عن طريقه فنشأت شخصيته الادبية متأثرة بعوامل شتى ، مطالعاته الكثيرة المتنوعة من جهة وقد فتحت امامه آفاق امكانيات رحيبة فتألم مع شكسبير لالم الانسانية الغائصة في اهوائها وهلل معه في معرض المثالية والوفاء

(١) على يد الخوري بطرس البستاني

واعجب ببطولة بيرون وسمو شاعريته كما احس مرارة روسو وتعلقه بالطبيعة وثورته على المجتمع في سبيل المساواة وحبذ دعوة فولتير الى التساهل الديني مأخوذاً بتهكمه اللاذع وتلقى تيار العلومية والتطورية وشعر بمرارة المعري ونقمته على المخاتلين المداهنين ، وتناقض البيئتين اللتين آوتاه من جهة ثانية ، وادي الفريكة الوادع حيث يسود التعصب والتحجر والتقليد ونيويورك مدينة الغرائب والعجائب الصاخبة وما بلغته من رقي وحضارة وتساهل في حقول الدين والاجتماع .

بيد ان هذه العوامل وان فعالة الاثر لم تكن كافية وحدها لتخلق الريحاني الاديب المصلح لو لم تكن لديه نزعـة فطرية قوية الى بلوغ الحقيقة والى العمل الانساني المجرد غذتها صدمة الخيبات المتوالية .

وها كه يروي الآن باختصار بعض ما اثر في تكييف نشأته قال :

« تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه . رشفت في نيويورك الجام تلو جام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلألئ وما يمازجه من الخوف والاعجاب .

غدوت بعد عشر سنين في اميركة معجباً بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا .

ونسيت فرنسا الا في آدابها تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وتردداً في مضمار الحياة ، صرفتني عن حقائق الوجود المادية وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية ... ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة اخلاقية واجتماعية ارقى من الشعب الاميركي واحب الى من كان مثلي »

تأثيرات كثيرة متباينة تفاعلت في ذاتية الرجل فكان لها انعكاسات بليغة في تحضير انتاجه الادبي وتكييف سنيه المقبلة .

***

العهد الثاني

اديب يتحرر ويحرر

لنصبر على الاضطهاد ولنكن كؤوس الحب التي تحول ما يصب فيها من سم زعاف بلسما شافياً

— اناتول فرانس —

الحكيم من صار الى غرضه دون ان يلوي على شيء مما حوله من اشواك الضغائن والاحقاد ومن اشباح اللؤم والفساد

— الريحاني —

وصل الريحاني الى القارة الجديدة وهو على اشد ما يكون استياء من حالة بلاده التي كانت مسرح التنابذ العنصري والتعلق بالتقاليد ، فتولدت في ذهنه فكرة اصلاح عميق لا يتم الا بالثورة الجارفة تشمل الروح والفكر والمادة كالثورة الفرنسية . وكانت الحال في سوريا ولبنان كثيرة الشبه آنذاك بالحال التي كانت عليها فرنسا قبيل سنة ١٧٨٩ فاوحى اليه طموح الشباب ان يلعب دور فولتير في

عصره يقضي على الرجعية البالية وينشىء على انقاضها حضارة عصرية راقية .

ولما كان يعتقد ان اسباب الانحطاط الاجتماعي تنحصر كلها في التعصب الطائفي والاستسلام للجهل عزم على محاربة هاتين الآفتين في اوساط المهاجرين اولا بكل ما اوتي من جرأة ورباطة جاش فكان اول عمل اتاه في هذا السبيل باشتراكه العملي في نادي جمعية الشباب الماروني في نيويورك وكانت تضم بين اعضائها يومذاك شكري رحيم ، امين الغريب ونجيب دياب برئاسة الامير يوسف عبد الحميد شهاب .

اعتادت هذه الجمعية ان تنظم حفلة سنوية ليلة عيد مار مارون في ٩ شباط تدعو اليها الجالية اللبنانية والسورية عـلى اختلاف مذاهبها ، فتشرب الانخاب وتلقى الخطب الاجتماعية تعزيزاً لتقارب المهاجرين وقد كلف الامين تلك السنة ، سنة ١٩٠٠ ان يهيء خطبة يفتتح بها الحفلة ، فاغتبط لذاك واغتنم الفرصة ليهاجم العصبية المذهبية التي خبر عواقبها الهدامة في بلاده وينادي بالتساهل الديني الصريح فعلم بالامر بعض الكهنة وبادروا تواً الى الريحاني الاب يسألونه ان يؤدب فتـاه وقد اقنعوه بان خطاباً هذا شأنه طعنة حادة في صميم الدين . نجح الساعون في سعيهم وارغم الوالد ولده على تمزيق خطابه فتوسط للحال انصار الامين بدورهم لدى ابيه وصوروا له المستقبل الزاهر الذي يرتقب امينا فيما لو تمرن عـلى الخطابة واشتهر فانتزعوا منه الصفح والرضى بعد مداورات طويلة شتى . وفي تلك الليلة التاريخية وقف امين يلقي خطبته الاولى في العربية فاشار في مستهلها الى غايته يبتغي جس النبض حتى اذا دوى التصفيق في القاعة وعلا الهتاف ارتفع صوته مترجرجاً يقول : « تصفقون اذن اتكلم » ولفظ كلمته في التساهل الديني وفي القضاء عـلى التعصب بلهجة الواثق المؤمن بقوله فانقسمت جماعات الحاضرين له وعليه ، وعمّت الفوضى المكان فانبرى الخور اسقف يوسف يزبك يرد في اثناء الجلسة مقرعـاً منددا لاعناً وتدخلت الشرطة لتحفظ الامن وانطلقت الالسن تلهج بذكر الامين المحرر ، فكانت الصدمة الاولى بينه وبين رجال الدين وكانت جرثومة المخالفة الثلاثية لديه . اما الخطاب نفسه فمحوره طعن حـاد بالتعصب الديني ودعوة الى احترام

اديان الغير سعياً للتآخي في بنوة الوطن . لهجته جريئة صريحة غلب عليها طابع الهوس ، هوس الشباب المشبع بروح فولتير وهوبس وابطال الثورة الفرنسية الطامح الى فرض مشيئته الجموح . وبعد مضي سنة على القاء هذا الخطاب نشرته جريدة الهدى بين قرائها فكان بليغ الوقـــع في اوساط المغتربين في اميركا تناوله معظم صحفهم بالثناء محبذاً نبذ التعصب شرط الا يؤدي الى فتور العقيدة والى محاربة الدين . فقويت ثقة الامين بنفسه وازدادت رغبته في إداء رسالة التجدد . لكنما المال ! عصب الجهاد لم يكن وفيراً لديه فاضطر الى ان يواصل العمل التجاري مع ابيه ليدخر المـــادة اللازمة لتحقيق اهدافه وهو يعيش مستقبله البعيد في عالم التصور .

***

هنالك في شارع برودواي حيث « يزدحم بائعو الخضر وصبيان الازقة وتكثر المناظر القذرة والنارجيلات وطاولات النرد والشوارب السود » كان يجلس امين وراء حاجز خشبي قرب طاولة ضيقة عرجاء يضع منهجاً لحيـاته المقبلة وهو لا يبالي رضي الزبائن ام غضبوا ، لقد احب فالستاف اكثر من جميع الرجال السمان الذين كانوا يجيئون ليبحثوا في التجارة والاشغال . (١)

واقع اليم جرحه في صميم كبريائه ، حاول التملص منه فراح يدرس اصول الموسيقى والتصوير لينطلق مع روعة الفن الى فضاء الطمأنينة والانخطاف ولكن وقته الضيق لم يكن ليتسع لجميع اعماله ودروسه وعلاقاته المدنية ، فكان عليه ان ينقطع عن المجتمع ، ينطوي على نفسه يدرس ويكتب ويعمل في وحدة النساك « قد اعتزلت عن معارفي وعن الناس تماماً لانني رأيت ذلك موافقاً لاشغالي العقلية وبعد ان سافرت والدتي واصبحت انا مع شقيقاتي واخي الصغير في البيت وضعت

(١) عن الذات مكمل

قانوناً للزوار وجعلت لهم يوما مخصوصا اجرد نفسي به لاستقبالهم والقي دروسي واعمالي جانباً في ذلك النهار .

«انا الآن تاجر او بالحري مدير لاشغال والدي اثناء تغيبه غير اني اعود الى البيت الساعة الخامسة مساء وادرس ما استطعت من ذاك الوقت الى منتصف الليل . احياناً يأخذني النعس فاطلب النوم في غير وقته فاضطر ان استخدم الوسائط الفعالة المنبهة لتبقيني نشيطاً وصبوراً . ومن هذه الوسائط جربت القهوة ثم الشاي ثم التدخين مع الحشيش ثم سلكت مسلك ابن سينا واخذت قليلاً من الخمرة (الوسكي) كل ليلة . غير ان هذه الاشياء اضرت بي اخيراً واثرت في اعصابي فصرت سريع التهيج وكثير الزعل وكنت اذا بحثت احدى شقيقاتي او اخي وجاوبوني استشيط غضباً . وبعد مدة تأملت في حالتي هذه وعرفت سبب تصرفي فانقطعت عن هذه المنبهات واعتضت عنها بشرطة مبلولة في الماء اتعصب بها في الليل حينما اكون مشتغلاً فتبقيني واعياً ونشيطاً .

« ... افكر في امور كثيرة واعزم على تأليف الكتب وكتابة الرسالات . ولكن لحد الآن لم اتمم منها شيئاً . نعم يجب ان اثبت على عزمي . قد انتهيت مؤخراً من «المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين البغل والحصان والحمار» ولكن سوف لا اطبعها قبل ان اصير قادراً على تصليح لغتها بنفسي ، فيجب علي اذن ان اتمم الامور التالية في السنتين القادمتين من ١٩٠١ الى ١٩٠٣ .

١) درس اللغة العربية : بحث المطالب ومطالعة ابن خلدون ومراجعة حضارة الاسلام ونهج البلاغة والحريري والدرر والغرر ومطالعة تاريخ مصر لزيدان وتكميل قراءة التوراة .

٢) مراجعة علم الفيزيولوجيا وعلم الحيوان والنبات ودرس السيكولوجيا والجيولوجيا وقراءة هذه الكتب :

Darwin's: Origin of species and descent of man
Huxley's : Man's place in nature
Spencer's : Data of Ethics

Allen's : Life of Darwin
Henri George's : Progress and poverty

٣) دروس في اللغة الفرنسية ومطالعة :

Volaire's : Louis XIV
Rayons de l'aube

من اقوال تولوستوي :

Victor Hugo's Morceaux Choisis
Victor Hugo's Extraits (I)

في ١١ تموز سنة ١٩٠١ .

هذا هو البرنامج العملي الذي وضعه امين لنفسه ذلك العهد فطبقه بانتظام وثبات لا يمل ولا يتوانى مهما بلغت وطأة التعب عليه .

٢

لم يكن الريحاني ممن يسلمون جزماً بنظرية كبلنغ «الشرق شرق والغرب غرب ولن يجتمعا ابداً » بل كان يعتقد « انها لا تصح الا في مظاهر الاجتماع السطحية التي تزول عند احتكاكها من جهة بالحقائق الاولية الدائمة ومن جهة اخرى بالحقائق السامية الفنية » . يحاول ان يكون همزة وصل بينهما ، بنقل الى الغربيين روحانية الشرقيين والى هؤلاء تقدمية الاولين . فكان اول عمل قام به في هذا المعنى وضعه نبذة عن تاريخ الثورة الفرنسية تناولت اسباب نشوبها واحوال محركيها من فولتير الى روسو الى روبسبيير ثم نتائجها المعنوية والفكرية ، ذيلها بانتقاد فيه التهكم اللاذع لتأليف توماس كرليل في تاريخ تلك الثورة اخذ عليه فيه استرساله مع العاطفة قال : « ان كرليل يحكم على الحوادث بالنسبة الى انفعالات نفسه لا بالنسبة الى

---

(١) مذكرات امين الريحاني ونشرها اخوه البرت في كتابه – امين الريحاني –

الظروف التي نشأت عنها نفسه ولذلك لا نرى في كتابه الا مجموعة قصائد مدح وفخر وهجاء ورثاء فهو يسير منشداً وراء عربة المنتصرين وباكياً في موكب المنهزمين».

نشرت الهدى النيويوركية هذا الكتيب سنة ١٩٠٢ فلم ترج سوقه كما توقع امين ونعوم ولا غرابة فان ما كتب في هذا الباب لا يحصى عدا ان المؤلف لم يزل مجهولا في اكثر الاوساط القارئة . وقد ابدى امين في بكر تأليفه هذا لباقة في التعليل وتفهماً للوقائع لا بأس بها لكنه اغفل نقاطاً جوهرية في بعض تحاليله جعلتها مبتورة شوهاء يتكلم مثلاً عن بواعث تلك الثورة فلا يذكر منها الا القريبة وهي في عرفه خدمة الدين والنساء والاشراف اما اثر القومية المستيقظة وهرم العهد القديم فلا يعيره اي اهتمام ، فضلاً عن انه لم يستطع ضبط شعوره في جميع المواقف فيجرد نقده عن كل تاثير عاطفي ، بل وقع في الخطأ الذي عابه على كارليل فكان في اغلب الاحيان خطيباً شاعراً اكثر منه مؤرخاً .

كانت الصدمة شديدة على الريحاني بعد كساد كتابه الاول ولكنه غالك عن اليأس واستمر يكتب «المحالفة الثلاثية» في جو داخلي عابق بالنقمة والامتعاض . وفي ذلك العهد اتاحت له ظروف حياته ان يعايش العمال البائسين يشعر شعورهم ويتألم معهم ، رآهم في المناجم تحت الارض وفي العنابر يصلون ليلهم بالنهار ويجابهون الموت كل ساعة ورأى صغارهم يهيمون جياعاً على الطرق ، فتقززت نفسه وثار الانسان فيه فانبرى يكتب في الصحف الانكليزية والعربية يطالب بانصافهم يصور شقاءهم باسلوب حي مؤثر ويندد بتفاوت الطبقات وظلم المحتكرين وآفات التمدن الحديث « ما هي فضائل هذا التمدن المؤسس على الطمع وحب المال والاستئثار . التمدن الذي يسن ارباب المال شرائعه فينفذها سماسرة البورص ويبشر بها اصحاب المعامل وينشرها وزراء الحربية بالمدافع والمدرعات — الريحانيات —

انه الفتى المثالي الوفي لمبادىء الثورة الفرنسية يدافع عن الاخاء والحرية والمساواة بقلبه وقلمه وروحه وقد رآها كلمات فارغة تتاجر بها الالسن على غير طائل .

٣

« دع التفلسف جانباً يا امين وقم بعمل مثمر يطعمك خبزاً انك لم تهجر بلادك لتدرس وتكتب وتتأمل بل لتجمع ثروة تذكر فالذي يملك دولاراً يساوي دولاراً في هذه الايام . لقد طبعت كتابك الاول وعلقت عليه ما شئت من آمال فخسرت ما انفقت على طبعه وضاع املك . فهل اتعظت او ارتدعت ؟ » .

هذا مثل من العظات البليغة التي كان يسمعها امين من انسبائه وجيرانه ، آنذاك فاكتأبت نفسه وفارت انفته وشكا امره الى بعض خلانه الادباء فشجعوه على المضي في نشاطه مذكرين اياه باولئك العباقرة الذين طالما فشلوا في بدء حياتهم ولاقوا الخذلان .

وكأنه شعر يومئذ بضآلة العمل الفردي بالنسبة الى المحيط فترك برجه العاجي وحالف مع بعض اخوانه المهاجرين ندوة العشرة برئاسة الامير يوسف ابي اللمع قصد التعاون في الحقل الادبي الاجتماعي الفسيح ، حتى اذا انجز «المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين الحصان والبغل والحمار» نشرها في اوائل سنة ١٩٠٣ وضمنها بعض الصور الهزلية . وهذا الكتاب ، محاورة رمزية جعلها على السن الحيوانات يعبر فيها الثعلب عن رأيه اي (المؤلف) فيعرض باعمال رجال الدين ونظرياتهم اللاهوتية محرفاً اقوال المسيح ساخراً من عبادة الصور ومن صحة العجائب زاعما انها تقاليد وسخافات عقيمة تشكل العقبة الكبرى في سبيل تقدم العلوم ، فيضطهد لانه يرى الحق كما هو لا كما تريده اهواء المتاجرين بالضمائر اما السيد المسيح فيظهر بمظهر الاسد وقد شوه الكهان اقواله حسبما اوحت اليهم المصلحة الذاتية . ورب يوم يأتي يجرف فيه تيار العلم والتمدن هذه العقائد الدينية الباطلة في نظره فيتحرر الناس من طغيان الاكليروس الوبيل « اما الحصان والبغل

والحمار فذهبوا الى اسطبلهم منكسين وجوههم خاسئين وبينما هم سائرون ذات يوم على طريق السكة الحديدية اذ صفر قطار العلم القائد عربات البخار والكهربائية والاختراعات ومر عليهم جميعاً فسحقهم سحقاً وتطايرت رؤوسهم وبقايا اجسادهم في الجو وتشتت اعضاؤهم المتقطعة على طريق التمدن الحديث » .

تلك هي باختصار آراء الريحاني في المحالفة الثلاثية سبكها في قالب هزئي لاذع لغته اقرب الى العامية منها الى الفصحى تعمدها قصداً لتكون قريبة من متناول الجميع . لقد حدت الامين الفتى القابل التأثر الضعيف الشخصية عوامل كثيرة على اتباع هذا المسلك الاباحي الوعر وعلى التورط في الالحاد اهمها عدا تأثير نعوم المكرزل (ناشر الكتاب) ونقمته على الاكليروس ، نهم شديد الى بلوغ الشهرة كيف كان سبيلها فحاول ان يكسر « مزراب العين » ليفسح مجالا للتحدث به . اما الافكار التي اوردها هنا فقد استمد معظمها من ادب آخر الجيل الخاضع لسيطرة رينان والعلومية وتأثير مادية كرليل وتطورية داروين ، اضف الى ذلك جواليتة الاميركية العابق ببخار المصانع وفرقعة المتكالبين .

***

ثار ثائر الاكليروس عامة واليسوعيين خاصة لدى ظهور المحالفة الثلاثية فنددوا باقوال الريحاني دفاعاً عن الايمان المسيحي الجريح ، فانتصر له بعض عارفيه واعتبروا كلامه دستوراً لهم وناصبه البعض الآخر العداء فكفروه ووجهوا اليه من ذمهم ما يوجه الى الكفرة المارقين وتداولت الايدي كثيراً هذا الكتاب في الوطن والمهجر فاعيد طبعه مرات واحرق مرات حتى اصبح الريحاني معروفاً في معظم الاوساط الادبية .

بيد ان صاحبنا كان مضطرباً حائراً في تلك الآونة ، وقد كثر مناوئوه وهاجمته اغلبية الصحف في الوطن والمهجر كما انبرى بعض رفاقه بالامس يردون

عليه داحضين اقواله (١) وجفاه آخرون . الا ان نقمة الاكليروس والمهاجمين لم تكن لتوهن عزيمته وهو الذي عاهد نفسه على ان «يقول كلمته ويمشي» بل جددت نشاطه في سبيل ما اعتقده صواباً ، فنشر المكاري والكاهن سنة ١٩٠٤ يكيل على الاكليروس سخطه ويقبح اعمال المتاجرين منهم باسم الدين المستخفين باقوال المسيح مصوراً بقالب قصصي فولتيري كيف يحولون المحبة الى بغض والرحمة الى جور . وهذا الكتيب اقرب الى المقال منه الى الاقصوصة . اثر صبياني لا قيمة له كأنما ضاقت المحالفة الثلاثية عن تجسيم ثورته على الاكليروس فافرغ فيضه فيه .

انه انتاج الفتوة الجهيض لا يمثل شيئاً من اديب الغد .

٤

صرف الريحاني وقتاً طويلاً في ترجمة الرباعيات ، يكتب وينقح ويراجع ثم يعرض على اخصائه حتى رضي عنها اخيراً وطبعها سنة ١٩٠٣ فقوبلت بالاعجاب والاستحسان في الاوساط الاميركية ، قرظها عدد كبير من جرائدها وفضلها على رباعيات الخيام المترجمة وقد بلغ شغف الآنسة الفنانة ليلي ستريكلند بعذوبة بعض مقطوعاتها ان وضعت لها الحاناً موسيقية مطابقة في كتيب خاص .

ولا بدع ان يوفق الريحاني في ترجمته تلك وقد كان يحيا ابا العلاء وهو يترجمه فلا ينقل صيغاً محنطة جافة من لغة الى لغة بل روح ذلك الثائر وقد تبلورت خلال روحه الريحانية فابرز تلك الشخصية القوية تقريباً كما هي في اسلوب انكليزي متين السبك مرن العبارة . وقد اختار هذه الاشعار من لزوم ما لا يلزم وسقط الزند وضوء السقط ، وصدرها بمقدمة تناول فيها حياة المعري وتأثيره فقال : « اثار

---

(١) نذكر منهم عباس البجاني – رد على المحالفة الثلاثية – وامين الغريب : ذلك الكتاب .

ابو العلاء حرب الاقلام على ما في عصره من شرور واباطيل فحمل على الخرافات والاحاديث الموضوعة ونادى بضرورة الخضوع لسلطان العقل والثورة على الاستبداد والظلم رافعاً حرية الضمير وسمو النفس فوق مطامع الحكام مبيناً معايب الرؤساء ديناً ودنيا ، وبعد ان افاض في هذا الصدد قابل بينه وبين عمر الخيـــام فاعتبر الشاعر الفارسي تلميذاً لابن المعرة اخذ عنه معانيه كما اخذ فولتير معظم آرائه الحرة في الدين عن هوبس ولوك وبايل ، والمعري في نظره لقريطيوس الاسلام وديوجنس العرب وفولتير المشرق .

اما الرباعيات المترجمة فقد بلغ عـددها مئة وستاً وعشرين . بيتان في الاصل حولا بتصرف الى اربعة انكليزية نورد احداها هنا على سبيل المثال :

ونار ان نفخت بها اضاءت ولكن انت تنفخ في رماد
لقد اسمعت لو ناديت حيــاً ولكن لا حياة لمن تنادي

Fan thou the fire then behold the light
Fan thou but ashes and bemoon by sight
Call thou the living and they will respond
But whom thou callest are as dead as Night

لكن هذه الترجمة اذا نجحت في مجملها لم تخل بعض تفاصيلها من غموض وشذوذ عن الاصل ربما اقتضته اوضاع العروض وبورته حـداثة المترجم . ومهما يكن من امر فالشهرة التي حلم بها الامين بالامس تحققت له اليوم بعد المحالفة الثلاثية وترجمة الرباعيات ، فغدا كاتباً معروفاً تنشر له كبريات الجرائد العربية وبعض الانكليزية في اميركا ولا سيما الهدى ومرآة الغرب والاصلاح النيويوركية والبروكلين والفوروم ، فايسرت حاله سريعاً وتحرر من ربقة التجارة وقد توفي ابوه فكان يقيم تارة في نيويورك وطوراً في بروكلين في منزل عال زينت جدره صور غامبتا وويبستر وغلادستون ويتردد الى الاوساط البرجـــوازية والادبية هنالك ، فكان المحدث اللبق الهادىء الاعصاب يجول في كل بحث وحوار ، يبدي رأيه في الازياء والسينما والتمثيل ويقول كلمته في الفنون والسياسة والعلوم وهو دائماً خفيف الروح لاذع التهكم .

كان يخالط بنوع خاص الادباء والفنانين اعضاء نادي الثريا الاميركي ، يعقدون المجالس كل مدة ويتطرقون الى تيارات الفكر الحديث والوان الادب والفن . فلم يلبث ان لمع نجمه بينهم وعلا شأنه فاحبوا حفلة عامرة على شرفه سنة ٩٠٣ في فندق فاندوم (١) حضرها بين من حضر الشاعر الناثر ريتشارد لي جالين وبعد ان القى الرئيس كلمة وجيزة تناول فيها خصائص الريحاني دعاه الى منبر خاص وتوج رأسه باكليل من الغار ثم مهد له مجال الكلام فالقى خطبة انكليزية مقتضبة عن مزايا الادب العربي ومنزلة المعري في عـــالم الفلسفة فرضت اصغاء الحاضرين واحترامهم .

انها الاقدار الساخرة تضحك للامين بعد عبوس طويل فيرمقها حذراً متيقظاً باسماً

* * *

قد لا يكون احياناً بين الصداقة والحب الا خطوة واحدة يجتازها المرء لاواعياً وهو مدفوع بعامل التقدير المطرد ورغبة الاستئثار .

نمت علاقات الريحاني مع احدى صديقاته الاميركيات الحسان نمواً بلغ به حد الهيام الجامح فغـــدا يتألم لفراقها ويئن اشتياقاً فيرسل الانين شعراً نابضاً باحساس مبهم جريح .

كانت تمر به ساعات وحشة سوداء يهيجه فيها حنين المهاجر الغريب الى ذويه ، ام امين وسعدى وادال ، الى صنين والوادي ، الى الاخوان والخلان ، فيلجأ الى قلمه ينظم الابيات والقصائد مترعة من صميمه ، يتلوها عـــلى رفاقه في سهراتهم الدورية فيتناقشون حولها ويتنادرون وقد نشر بعضها سنة ٩٠٤ في ديوانه المر والريحان Myrtle And myrrh فجاءت صفحات حية من سجل شبابه . كشـ عن ثنايا نفسه الفتية وما خالجها من الم الهجر وحرقة الشعور الكئيب في

---

(١) راجع التفاصيل في مجلة سركيس عدد ٢٠ و ٢١

طبع سائغ جمع الى ميعة الرومانطيقية واضطرابها بساطة الفريكة وروحانية الشرق.
وتشاء الاقدار ان تفجع الامين باحب الخلائق اليه تذهب حبيبته للتنزه على نهر الامازون ولا تعود فينقم على الحياة ومن فيها ويلعن ، لكنه اخفى ثورته هذه وراء بسمة شاحبة مصطنعة خوف شماتة عارفيه وعمد الى الشعر عزاء اليائسين يحمله شكواه وثورته ثم لم يلبث ان مزق قصائده تلك تحت الحاء ارادته الحازمة فلم تنج منها الا قصيدة واحدة - نفحة من لؤلؤة - ادرجها اولا في جريدة المنار ثم نقحها واعاد نشرها في الريحانيات هاك شيئاً منها على سبيل النموذج .

« يا ايتها الساكنة قعر ذاك النهر القصي ، يا ايتها الراقدة تحت تلك الامواج الغريبة لا تجزعي ولا تخافي !
«انت اميرة اللؤلؤ واللؤلؤ هناك يلاقيك مرحباً .
«انت ملكة المرجان والمرجان يمجدك منشداً .
«يا ايتها الزنبقة المدفونة في مياه الغربة ، ليست الغربة بعدك بعيدة .
« وليس القعر دائماً رمز السقوط والحزن والبلاء .
«انت في غرقك ترتفعين وفي هبوطك ترتقين .
«وقد كنت بعيدة عني فادناك مني الموت فاصبحت حية في ذكر لا يموت .
«انت في مخيلتي تنيرينها ، انت فيها شمس الحب والذكرى الى ان تفنى المخيلة .
«احببتك حباً روحياً ، وروحك لا تزال رفيقتي ، على مَ الدمع اذن والحداد .
«ابعدتك الهجرة الاولى فادنتك الهجرة الثانية ، وانت الآن في افئدة محبيك وفيها من اللؤلؤ والمرجان ما يندر في نهر الامازان .

.. « اي منجل الزمان ان في الوجود حقولاً ازاهرها من روح الله وهي من قبل وستنور بعد ايامك وتبتسم دائماً لابتسامك .

« وانت من تلك الازاهر ايتها الروح اللطيفة الطاهرة كنت في حياتك الدنيا محجة الافئدة المحبة وكعبة القلوب الصافية ، ولا تزالين كذلك .

« لا تزالين عندي اعجوبة البعد والزمان .

« كلما رأيت لؤلؤة اسألها عنك .

« وكلما رأيت مرجانة ارى فمك واسمع كلماتك الدرية » .

ان هذه القصيدة وان غلبت فيها الصناعة على الطبع تظهر نفساً حائرة تنتحب وتهذي ، انها زفرات متقطعة حاول وصلها متعملاً ، فاخفق ، وتوالت على الامين المصائب والاشجان مرضت اخته سعدى بعد وفاة ابيه غرقت حبيبته وساءت احواله الصحية فسئم العيش في البلاد الاميركية المضطربة «بين شعب لا يعرف معنى السكينة والراحة ولا الجمال في بلاد فيها الحركة دائمة متواصلة بين قوم يأكلون ماشين ويقرأون آكلين ويعدون النقود راكضين ويعبدون الاوثان قائمين قاعدين فحول وجهه الى مشرق الشمس ليقترب من جمال الشرق الشعري وجماله الطبيعي وجماله الروحي بل الالهي اي الجمال الابدي الدائم» .

اجل عاد امين الى لبنان تصحبه اخته سعدى المريضة يطلب بلسماً لقروح في هوائه البليل «نفس الالهة بالذات» وطبيعته الرفيقة المضياف .

«اذا كانت اكتشافات العلم ونتائجه تزيد جسم الانسان نظافة وصحة وقوة وسعادة فينبوع الجمال النفسي الساحر الذي لا ينضب معينه في الشرق لا يزال يمنح النفس البشرية تلك الطمأنينة والتعزية التي تتوق دوماً اليها » ــ خالد ــ

(١) الريحانيات الجزء الاول

٥

مر الامين بمصر في طريقه الى لبنان حيث قضى شتاء كاملاً زار في اثنائه سمو الخديوي عباس حلمي واتصل بالشيخ محمد عبده وحـافظ ابرهيم واحمد شوقي وفؤاد صروف وفارس نمر وسائر الادباء والزعماء السياسيين هنالك فتناولوا في مباحثاتهم احوال الشرق الاوسط الاجتماعية والسياسية ووسائل انعاشها. حتى اذا اقبل الربيع غادر وادي النيل الى واديه الى «الصومعة» يستأنف عمله في وحشة السكون. «العزلة هي دواء لمن سئمت نفسه من ملاذ هذا المجتمع وموبقاته من سروره وشروره فيعود الى امه الطبيعة لتداويه بنور شمسها وعليل هوائها وشذا رياحينها وهي غـذاء لمن يخرج من الهيئة الاجتماعية والنفس نافرة من محيط هي غريبة فيه يعتزل الناس طالباً في الطبيعة الراحة التي لا يعرفها الناس التعزية التي قلما تعزي عامة البشر» (١) لقد تاق كثيراً عهد ذاك الى الاختلاء بنفسه القلقة يتنسم همساً في هدأة الغاب الاعزل بعد ان آلمته وحشية الانسان ودوخه عجيج محركاته «علـى كتف الوادي وبالقرب من كروم اجدادي نصبت خيامي فوق نهر الكلب، وقبالة جبل صنين، رفعت رايتي البيضاء عوضاً عن العـلم الاحمر الذي وضعته في يدي احدى بنات الحرية في البلاد الاميركية. (١)

الا انه لم ينعم بتلك الطمأنينه التي ارادها في عزلته. وقد اشتدة دعـاوة الاكليروس ضده عند وصوله الى لبنان وكثرت عنه الاقاويل في اوساط الجبل، من زاعم انه راع بروتستانتي يستهدف تقويض الكثلكة ومن قائل انه دهري ينكر وجود الخالق عز وجل ومن معتقد انه مشعوذ مفسد يحتم الدين اضطهاده كيفما اتفق الحال فكان اذا شاء قضاء حاجة الجأ الى من كان يجهل اسمه في المناطق البعيدة كالشوير

---

(١) الريحانيات

مثلاً لان القرويين عارفيه المشربين بالدعاوة ضده كانوا يخشون الوقوع تحت طائلة الحرم الكنسي فيما لو خدموه. ولما توالت الشكاوى بحقه الى الكرسي البابوي في رومة والبطريرك في بكركي تلح باقصائه عن الجبل، استدعاه ذات يوم اسقف الابرشية يستطلعه حقيقة الامر، فادهشته صراحته الجريئة ووعيه الانساني وادرك ان محدثه مفكر حر يؤمن بالخالق في صميمه ويهزأ بالشكليات. وبعد مقابلة جاوزت الساعة استأذن الريحاني بالذهاب وهو يقول: « احرمني اذا شئت يا سيدنا لانك اذا فعلت وقيتني زيارة الكثيرين من الطفيليين الذين يقلقون راحتي بهذرهم ويعبثون بوقتي ».

وبالفعل، حرم امين نفسه عن الناس فعاش، رهين قلمه وكتابه « في الصومعة » لا يغادرها الا لينسل الى الغاب عندما يعييه الجلوس « صعدت قليلاً وجلست تحت خرنوبة غضة وتنفست متنشقاً هواء الاحراج المنعش فكاد يكون لنفسي صدى في حفيف الاوراق (١) » لقد علمه صديقه المعري ان يستجير بعزلة الطبيعة ساعة تنهكه مشاحنات البشر وبلبلة المجتمع فتمده بحنانها المنعش وتبدد سآمته. «عدت الى وطني طالباً فيه راحة العقل وراحة النفس وراحة الجسد طالباً في الطبيعة ومنها ما ينسي المرء عقله ونفسه وجسده... ولجأت كابي العلاء الى العزلة في قريتي هرباً من الحضارة ومتاعبها وشغفاً بالطبيعة وجمالها وحباً بالتأمل ولذاته ».

* * *

لم يعد الامين اليوم ذلك المتأمرك المجهول وقد تقدمته الشهرة الادبية وزادت في اتساعها نقمة الاكليروس، او ذلك الفقير الحال وقد توافرت له ثروة تذكر فاذا كان لا بد من عمل ايجابي يقوم به فالظروف سانحة مساعدة. ان الشرق الراتع في خموله يفتح عينيه للنور، اليابان تنتصر في موكدن، حزب تركيا الفتاة ينمو باطراد، في مصر الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل والمجددون تلامذة الافغاني

(١) الريحانيات الاولى

ينفثون الحرية والثقة في صدور النشء الطالع وفي بيروت ودمشق وبغداد تنتظم الاحزاب السرية الاستقلالية المختلفة ، نار تحت الرماد تنتظر نفاخاً يثيرها ، هيا الى الواجب يا امين ، صوت دوى في اذن ضميره فلباه باندفاع يكتب ويخطب ويعمل ولا يمل « جرد نفسك ولو بضع ساعات عن اطمار الاجيال وتعال نحج معاً ومتى وصلت الى كعبة الحقيقة وانت في مئزر الحج تجد هناك اثوابك الموروثة واثواباً اخرى جديدة الى جانبها فاما انك تعود الى ما كنت عليه فتلبس ما الفته وتسير في سبيلك واما انك تعتاض عنها بثوب ليس فخيماً ولكنه من الرقع والفتوق سليم » – الريحانيات –

ذلك هو النداء الذي قذفه الامين صريحاً عالياً الى قارئيه وسامعيه يدعو الى الانعتاق من جهل واوهام قاتمة طالما شلت تقدمهم ويوجه شطر حضارة جديدة طالباً ان « يحرر الانسان نفسه بنفسه عاملاً في الداخل قبل الخارج لتكون حريته روحية اكثر منها مادية ، تكون صافية من الغش والخداع ، تكون اساساً للحياة الحقيقية الشريفة لا شعلة نار لاضرام اهواء النفس او طعمة لشهوات الجسد او امتيازاً للسلب والتعدي . »

ولما لم يكن في لبنان ذلك العهد وسط موجه دافع يبذر الافكار التقدمية في مواسمها ، راح يجمع شمل الادباء الاستقلاليين الذين كان اتصل بهم بالمراسلة من اميركا يرسمون خطة نظامية موحدة لعملهم ويخلقون تياراً فكرياً محرراً وهكذا اصبحت «الصومعة» محجة المثقفين يقصدها بصورة مستمرة عشرات الادباء ولا سيما داود مجاعص ، قسطنطين يني ، جرجي باز ، بترو باولي ، بشاره الخوري ، مصطفى الغلاييني ، عبد الرحمن سلام ، الياس خليل شديد ، فيلكس فارس واحياناً محمد كرد علي وشبلي الملاط . شباب طامح عطش الى التحرر يلتف حول الامين ويعالجون معه امور الساعة وتطوراتها الممكنة في الجبل وبيروت ومختلف الولايات ويدرسون الوسائل الفعالة لتنوير الشعب المستسلم لسنة المجهود الاقل ، حتى اذا انفرط عقدهم راحوا يكتبون في صحفهم (١) ضاربين على وتر الكرامة الوطنية

(١) نذكر منها المنار ، البرق ، الوطن النصير ، لسان الاتحاد والحرية .

وحرية الانسان مجسمين بصورة نائتة الخطوط ذل العبودية وعواقب الخمول محرضين على التحرر الناجز في المادة والذهن والروح .

انقلاب اجتماعي سياسي خطير يهيأ وراء الستار تحت اشراف الامين . وقد بدأ يحس امكانياته . انها المرحله الاولى من منهجه الاصلاحي شرعت تتحقق .

٦

تعود امين البساطة الانيقة في مسالكه فكان يعيش حسب الطريقة الاميركية المرحة اللامبالية ، يقوم بجولات رياضية بين الحين والحين تطول غالباً فتبلغ به زحله او عاليه او الشويفات يرافقه فيها كلبه الصغير دوق جون . وهنالك يزور اصحابه ويبيت ليلته ليعود في بكرة غده الى الفريكة حيث ينتظره القلم . فكان في رحلاته هذه يستلفت انظار العامة ويثير فضولهم فيضربون في مسارح خيالهم يستنبطون عنه التكهنات . وكيف لا يبدو لهؤلاء غريباً في زيه مستهجناً في شكله شاب حليق الشاربين مضفف الشعر مسدوله (١) يلبس قبعة مخملية «وبنطلون وبالطو ابيضين يغطيهما رداء اسود كجبة الكاهن» فيتحدثون بامره على التنور والعين وفي باحات الكنائس بدهشة واستغراب .

وفي ايام الشتاء كانت تقفر الفريكة وينقطع عن الامين اصحابه مرغمين ، فتنوب عنهم رسائل المودة يطلعونه فيها على مجرى امورهم ، يشكون احياناً ويتذمرون فيجيبهم باسلوب خاص فيه الصراحة الرصينة والتجرد يؤنب ويعاتب ويشجع ويرشد دون ان يبدي تحفظاً او يراعي مجاملة كما يتضح لك وانت تقرأ رسالته التالية الى صديقه الحميم قسطنطين يني ، قال منها : «كن صبوراً ولا تيأس . الغم لا ينفع والسويداء اشد ضربة على النفس . وبدل ان تجلس ساعات وراسك

(١) على غرار اوسكار وايلد

في الارض تحرك وارفع رأسك الى السماء . ولا ينفعك رأيي ولا نصيحتي ولا حبي ولا رثائي ولا تنشيطي اذا كنت انت لا تربي في نفسك تلك العاطفة التي تغنيك عن حب الناس ومؤاساتهم. عاطفة الاستقلال والثقة بالنفس اذا تملكت منك تملكاً شديداً ترفعك فوق غمك وتنصرك على بوادر الايام وصروف الدهر . ولا تنس ان تقرن الثقة بالنفس بالنشاط والنشاط بالبشاشة .

انا مثلك منيت بالسويداء وكاد يسومني اليأس في ماضي حياتي ، وكنت احفظ مذكرة اكتب فيها صباح كل يوم شكواي واذرف على صفحاتها دموعي ولكن ذلك قلما كان ينفعني لانني في تلك الايام لم افعل شيئاً وما تمكنت من العمل الا بعد ان مزقت مذكرتي وامسكت نفسي عن الشكوى والتململ .

الصبر يا اخي الصبر فاي شيء يدوم . الواجب جميل والحرية جميلة والاستقلال اجمل ولكن لا تعجل . وفي وقت الشدة كن شديداً بل ادخر من نشاطك ايضاً للمستقبل .

قم بواجبك الآن نحو عائلتك ولكن لا تهمل نفسك انا لست من الذين يقولون في اماتة الذات وجل ما يمكنك عمله الآن ان تستعد للمستقبل ان تتهيأ لدخول الكلية الكبرى في العالم لانكم كلكم في هذه البلاد لم تزالوا في مدرسة الحياة الابتدائية .

فاستعد يا اخي قسطنطين وعد نفسك بمستقبل جميل . الاستقلال والثقة بالنفس والنشاط والبشاشة هذا هو دوائي لمثل ما يصيبك ويصيب الكثيرين » .

ترسل بسيط جريء خلا من الحشو والتبخير ، انه الاختبار الواعي مازجته العاطفة الصادقة يمليان سطوره .

عندما كان امين يمل وحشته المطلقة في « الصومعة » كان ينحدر الى الوادي يعب انفاسه العطرة ويناجي الطبيعة المضياف وقد علمه روسو ان يعود اليها كلما اعوزته السلوى البريئة . وهنالك فوق مضيق نهر الكلب حيث سجل رعمسيس وسنحريب وامرحدون واللنبي سلسلة انتصاراتهم كان يقف واجماً متأملاً امام

رهبة الغاب وهيبة التاريخ يعيش بالذكرى صبوته المرحة ويطلق لمخيلته العنان وحدث يوماً ان فاجئته مطرة شديدة وهو في قاع الوادي فهرول الى الدار هارباً وقد ارتسم في ذهنه مشهد الطبيعة العذراء تغتسل ، فاخرجه في مقاله الشهير - وادي الفريكة - بقالب واقعي دافق بالحيــاة والشعر اعيب عليه فيه تشبيه خشن لا يستسيغه الذوق السليم وارسله الى صديقيه صروف ونمر في مصر فنشراه في المقتطف وبعثا اليه بخمس جنيهات كانت اولى نقود ترده من انتاج قلمه في الشرق فدعــا اصدقاءه الى فندق « اللوكسمبرج » واقام لهم حفلة دعــابة ودية حياء لتلك المناسبة السعيدة .

***

اخذ الشعور القومي يستيقظ في ذلك العهد لدى الناشئة المثقفة فبدأت تحس قصورها الاجتماعي والسياسي وتعي معطيات الحرية الصحيحة، فتقيم الحفلات العامة في كل ظرف ملائم ، تلقى في اثنائها خطب شتى في السياسة والادب والاجتماع . وكثيراً ما شجع الريحــاني تلك المظاهر الوطنية ، فساهم في تنظيمها عملياً والقى الخطب كلما طلبت اليه . فكان اذا خطب تأججت عيناه ونور وجهه وثار لسانه حتى تخال ان كل ما فيه ومنه يتكلم وهو الى ذلك لا يتعمد الصيغ المحنطة الرصيفة ولا المجاملات المبتذلة الجوفاء بل يستمد من وحي الساعة موضوعاً جديداً ينفذ منه الى الدعوة الاصلاحية التي يجاهد من اجلها. وهاك على سبيل المثال شيئاً من خطبة القاها سنة ١٩٠٥ في جمعية شمس البر البيروتية ناجى في مستهلها الشرق منبت المعجزات ثم استطرد الى الحرية ومعانيها قد يعطيك فكرة عن نهجه الخطابي قال :

« ان الثورة الفرنسية هي احــدى نتائج الثورة الروحية التي اطلقت ضمير الانسان من قيود الخرافة السوداء وعقله من قيود السلطة الصماء وقلبه من قيود الطاعة العمياء فتدبروا هــذا واعلموا ان الحرية الروحية هي رسول الحرية السياسية ... ابعد حراً من لا يستطيع ان يبدي رأياً مخالفاً رأي سيده ،

ايعد حراً من لا يملك نفسه ومن لا راي له ولا روح له او يحسب حراً من كان وجدانه مقيداً بوجدان من يتوقف عليه معاشه . الحرية الروحية هي ان تكون روح كل امرىء بيده وتصرفه لا محجوزة ولا موقوفة ولا مباعة ولا مرهونة ! ان الحرية السياسية اذن هي فرع من الحرية الجوهرية الاصلية الروحية او نتيجة من نتائجها يحدها ويقيدها الناموس من جهة والتهذيب من الجهة الاخرى فبدون الناموس يستبد الحاكم ويتوغل في الطغيان وبدون التهذيب يستبد الشعب ويمعن في العصيان . والناموس القويم الحي والتهذيب القويم الحي انما هما حصنا الحرية المنيعان . واما الناموس فتمثله الحكومة في الدستور ويمثله الدين في الايمان وتمثله الانسانية في الضمير . فالضمير الحي والايمان الحي والدستور الحي انما هي الدعائم الثلاث التي تقوم عليها الحرية الروحية والادبية والمدنية . والحرية الجوهرية والروحية الكاملة لا تسود ولا تنتشر في الامم الا بواسطة العلم الصحيح والتهذيب الصحيح » .

والخطابة لدى الامين وسيلة تعبيرية كغيرها يتخذها لاداء رسالته الاجتماعية الانسانية ، تثور نبرته فيها او تتزن حسبما تقتضي المواقف ولكنها تنم دائماً عن اقتناعه الاكيد بما يقول ، يؤيد ذلك جيشان جيويته ساعة الكلام فكأن كل لفظة وكل ايماء يتمخض عن شعوره الواعي . وهو الى ذلك يتوجه الى عقل سامعيه عن طريق الحس ، يورد الامثلة الواقعية والاستعارات الموحية ويتعمد السجع المحكم الايقاع ويجسم الحقائق بشكل بارز بليغ ليتسلل تدريجاً الى وجدانهم فيوحي اليهم ما يشاء . ولعل ممارسته التمثيل في صباه ساعدته في تعزيز امكانية اقناعه اذ دربت القاءه ولهجته وجعلتهما طيعين يتلاءمان والفكرة فكان مثلاً مصوراً شاعراً خطيباً في وقت معاً لم يدرك عليه الا بعض القصور في حلبة التجويد اللفظي .

اشتدت الرقابة على الحفلات والاجتماعات التي كان يخطب فيها الامين وهدد مسؤولوها بالعقاب الصارم اذا استرسلوا في الشذوذ فصدفت الجمعيات عن السياسة وما اليها وحصرت نشاطها في الادب والاجتماع . فكانت اذا دعت الامين الى الخطابة سألته ان يتغاضى عن الناحية السياسية خوف مغبة الامر فكان يتهرب غالباً ويعتذر

عن الحضور لا سيما وانه كان منكباً على التضلع من اصول اللغة غارقاً في التأليف.
وقد اجاب مرةصديقهجرجي باز في هذا الصدد قال: «انا منهمك هذه الايام في كتاباتي الانكليزية وقد كتبت روايتين قصيرتين ونظمت عدة قصائد وباشرت في نظم روايتي التمثيلية وقد انتهيت من جمع المقالات العربية ونقحتها وصححتها جهدي وبعثت ايضاً الى صديقنا محمد بمقالة جديدة للمقتبس عنوانها ريح سموم وفحواها من العنوان مفهوم وزد على هذا كله مشقة النحو وبليته وما اقاسيه بين الفراء والمبرد وابن مالك والاخفش، اي والله حينما تمر في مخيلتي الفاء السببية يغشيني صداع شديد ولما افكر في الفرق بين المفعول به والمفعول معه يحل المغص بي وفي ومعي وعلي فاود لو عفاني الدهر من لغة حمير ولغة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين ولكن فوق كل بلية بلية وهمي الآن التخلص منكم ومن الخطابة في الجمعية (١) فكيف يمكنني كتابة خطابي وانا مقيد من جهة بنظام جمعيتكم ومن جهة اخرى بارادة المضروبجي (٢) وانت تعلم ان اكره شيء لدي الضغط والتقييد فلا يمكنني والحال هذه ان اقول قولاً يلذ او يفيد. ان قوتي في حريتي لا في شعري واذا وقفت على منبركم وقلت يا جمل يا بوبعه عملا برأي صديقنا قسطنطين فلا بد من ان احشر شيئاً من روحي بين الكلمتين واشفق ان يسقط الجمل تحت اثقال الجمل وان تهرب البويعة من الزوبعة فقل لي رأيك وخلصني من هـذه المحنة يا سي جرجي وانا بانتظار جوابك».

انها طبيعة الامين الثائرة اللامبالية تأبى الا الانطلاق البعيد في فضاء الحرية والحق اللامتناهي. وانه الاديب الناهض يتطور ويستكمل وعيه الادبي فيتسامى عن ترهات صباه ويعمل ليعمل...

---

(١) جمعية شمس البر (٢) الرقيب.

٧

احب امين امه واخته سعدى حباً شديداً حتى كاد لا يأتي عملاً الا بمشورتها وقلما خالف امراً اراداه تلح عليه ام امين في ان يرافقها الى الكنيسة ايام العيد فيفعل مختاراً ، يسمع القداس ، يقرأ الرسائل ويقف خاشعاً متأملاً امام مذبح العذراء ، فيتهامس الحاضرون فيما بينهم حائرين معجبين كيف ان « الماسوني الكافر » كاتب المحالفة الثلاثية الثائر على الاكليروس والطقوس يتردد الى الهيكل المقدس وينحني واجماً اجلالاً لحرمته .

قد لا يكون امين مسيحياً ممارساً يقوم بالمراسيم الدينية حسب اصولها وقد لا يكون ذهابه الى الكنيسة الا مراعاة لخاطر امه الورعة ولكن مما لا ريب فيه هو ايمانه الصريح بالله وبالحقائق الازلية يؤيد ذلك جوابه لاحد المرسلين الشرقيين عندما سأله ما هو دينك ؟ فقال : «لا دين لي اسمـــاً ورسماً ولكني اعتقد بالله ابينا اجمعين واعتقد بالاخاء البشري» (١) .

اجل كان يحتقر امين المظاهر والشكليات ويعتبرها باطلة كلها زاعماً ان الصلاة مجرد خير ومحبة وانسانية « لنخدم الله بالاعمال ولنسبحه بالاعمـال » اما « اولئك المتظاهرون بالبرارة المصلون بفضل العادة المتعلقون بالقشور دون اللباب» (٢) فنالهم قسطاً كبيراً من تقريعه دون ان يتعرض للدين وقد غدا يميز بينه وبين مستثمريه . بعد ان تحرر من تأثير بعض الانتهازيين في اميركة وتطور نضوجه فكان اذا نقم على احد الكهنة او المتعبدين فلا تتعدى نقمته شخص الرجل واعماله شأنهـا

---

(١) الجزء الرابع من الريحانيات

(٢) الريحانيات الجزء الاول .

بالامس وقد اوضح موقفه من الدين ورجاله في سياق خطبة هنأ بها صديقه المطران الزغبي يوم سيم اسقفاً على ابرشية قبرص ، قال منها :

لئن ضممت صوتي الى صوت القوم ومزجت شعائري مع شعائرهم اليوم فذلك لاني لم ازل لبنانياً اغار على مصالح هذه الامة الصغيرة وافتخر ابداً بما بقي من محاسن وطني القليلة . لئن مدحت مع المادحين واستبشرت مع المستبشرين فذلك لاني مع الحق حيثما وجد ونصير الفضيلة في كل حين . نعم انا اول من يعترف للاكليروس بالفضل متى كانوا من رجاله وانا اول من يخضع لسلطتهم متى استخدمت تلك السلطة لتعزيز العدل وتأييد الحق ورفع المظالم عن الفقراء والضعفاء وبث روح التهذيب والعلم في الامة . وفي وقوفي امام سيادتكم الآن برهان حي ناطق على انني لست من الذين يقاومون ويقارعون الاكليروس لاغراض خصوصية ومآرب دنيئة وانما هي غيرة وطنية يا مولاي حملتني على مقاومة اولئك الذين يبذلون الدين وفضائله في سبيل الدنيا وزخارفها اولئك الذين يأكلون خبز النفاق ويزرعون في قلوب الناس بذور الشقاء ، اولئك العاكفين على جمع المال اللابسين ثوب الكهنوت عن غير اهلية واستحقاق .

انها الصراحة الخشنة المجردة تلازم تعبيره الجريء فتضاعف وقعه وتفرض الاعجاب وانه الخطيب الرصين يزن كلماته ويعرف مداها .

***

ويقبل الربيع في لبنان ومعه الجمعة العظيمة فيعيش الامين بالذكرى ايام صبوته « يحملني الخيال الى حقول الفتوة فاراني راكضاً حافياً في تلال لبنان صاعداً طوراً في هضابه وقد كستها الازهار وطوراً نازلا اقطف في الوادي يوم الجمعة العظيم طاقة احملها خاشعاً الى الكنيسة واضعها عند قدمي المصلوب العزيز » ويهبط الى الغاب فيجمع طاقة من الزهر ويضعها صاغراً كسائر المؤمنين امام الصليب «ان

اكليل الشوك لاعظم من تيجان القياصرة و كاس المر لاطيب من خمرة الاكاسرة جئت الكنيسة لاردد اليوم مع الناس ذكر امير الناس بل ذكر الحقيقة التي يعز نصرها بالعذاب ويحلو بمر الشراب - الريحانيات -

نعم كان يردد ذكر الحقيقة التي يعز نصرها بالعذاب ذلك الذي كان العذاب رفيقه الدائم لقد عاد الى لبنان يبتغي الراحة والعزاء بين مواطنيه ، فاذا اللبنانيون الا اقلهم نافرون منه لانه حارب الدين ورجاله واذا السلطات تطارده لانه نادى بالتحرر واذا الداء العصبي ينتاب عناه فيسلبه الهدوء .

داء عصبي كانت تتواتر عليه نوباته فتشل حركة يده وتطعن راحته اجمع الاطباء على انه نتيجة تأثير الرطوبة المتأصل في اعصابه منذ ان كان يقيم في محلة مانهاتن السفلى .

ولكنه رغم هذه العوامل المختلفة المتواطئة على تنغيص عيشه كان يتابع سيره الى الامام مرحاً متفائلا رابط الجأش ممتلئاً من قوة نفسه .



كان الريحاني اديباً عملياً واقعياً يعتقد ان اولى خدمة يؤديها مصلح للغير هي ان يجسم بنفسه مبادىء اصلاحه ويحياها فيأتي انموذجا ساطعا لما يرومه في سواه ، فراح يطابق بين قوله وعمله ويعيش حسبما يفكر وقد اعرب عن امنيته في الحياة في مقال نشرته المنار ثم صدر به الجزء الثاني من الريحانيات جاء فيه « لا المجد ولا الشهرة امنيتي القصوى ولا الثروة ولا السيادة ولا العظمة وانما امنيتي الجوهرية الاولى هي ان اكون بسيطاً في اعمالي صادقا في اقوالي مستقيماً في مبادئي وآرائي فطرياً في تصرفي وسلوكي حراً فيما احب واكره وبكلمة اخرى اود ان اكون

تظيف الجسم نزيه العقل والقلب بعيداً عن الجبن والخوف والتذبذب بعيداً عن الخجل الذي يذل النفس ويميت الحقيقة بعيداً عن الكذب والجربزة والمداهنة والرياء . علي ان اقتبل ما يقابلني من العقوبات في مسالك الحياة باشاً جاداً ثابتاً صابراً متجلداً علي ان اناهض الفساد والضلال في الناس والا اكره احداً من الناس. اود ان اعيش دون ان ابغض احداً واحب دون ان اغار من احد وارتفع دون ان اترفع على احد واتقدم دون ان ادوس من هم دوني او احسد من هم فوقي . علي ان اعيش صادقاً مسالماً مستقيماً .لا احب ان انصح احداً متى كانت نصيحتي بنت فكرة زائلة لا بنت حقيقة دائمة ولا ان أساعد احداً لا يعمل في مساعدة نفسه . واذا كان فيّ ما يلهم الناس الى الخير ويرفعهم درجة واحدة في سلم الرقي العقلي الروحي احب ان اظهره بالمثل والاشارة واللطف لا بالانذار والوعيد والتأمر احب ان تشع حياتي ولا احبها ان تفرقع . احب ان تكون كاحد الكواكب السماوية لا كسهم من الاسهم النارية »

رجل خبر الظواهر كلها فاذا هي باطلة سخيفة وتذوق الشهرة البعيدة فاذا هي براقة جوفاء راح يصقل نفسه وينمي الخصال الانسانية فيه بوداعة واتزان فاعلن موقفه صريحاً عالياً من الحياة والبشر وحاول ان يكون وفياً له حتى ساعته الاخيرة .

***

عرفنا امينا يحب العزلة المطلقة ويسعى اليها ، لكنه كان يريدها عزلة مختارة كعزلة امرسون وطورو ، لا يشأ ان تفرض عليه فرضاً فتشعره انه اسيرها ، فكان اذا طال الشتاء واشتدت عليه الازمات العصبية ، تضيق انفاسه وينقم على عزلة بورثه الخمول ، وقد كتب يوماً الى اخيه جرجي باز يخبره بنقمته على الانفراد المستمر قال : ولقد شبعت من حياة الانفراد بل سئمتها وكرهتها وصرت اخشاها واخشى بعض الاحيان . التخمة والسويداء والكابوس والبلاء وحديث البلداء

وخبث الاتقياء ونأي الاحباء والفقر والشقاء والفشل في طلب العلاء . كل ذلك ولا الخمول انا لم اخلق للخمول » .

نعم كان يتذمر ويشكو ويثور ذلك الذي نادى بالتجلد على المكاره والالم ولا غرو فكل امرء مهما بلغ اتزانه يخرج عن طبيعته في حالات انقباضه المقنط . ايام واسابيع تنقضي على وتيرة واحدة يسممها الداء ولا يعلم خلالها من امور العالم شيئاً لم يكن ليحتملها دائماً ذلك الذي تعود الحرية والتنوع والحركة في بلاد تتبدل كل لحظة ، فاخذ في الرحيل ...

ولكن كيف يرحل الريحاني عن هذه البلاد ولما تحقق بعد رغائبها السياسية ، اين حرمة الواجب الوطني الذي عمل بوحيه الى الآن واين التفاني في سبيل المبادىء الذي دعا اليه . لا انه لن يغادر وطنه قبل ان تثمر فيه بذور الاصلاح والحرية التي نثرها ورعاها فيه ...

يقلع الامين عن فكرة السفر الى اميركة ويجدد عزيمته على الجهاد فيتجاوز نظامه التنسكي ويكثر تنقلاته بين سوريا وفلسطين ومصر يتصل باوساطها ويبثها آرائه حتى نجحت اخيراً جهود المصلحين ، فانتصر حزب تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ واعلن الدستور وتحققت الامنية الاولى من برنامج الريحاني الطويل .

* * *

ولكن اعلان الدستور لم يكن الا توطئة للاستقلال الحقيقي الذي توخاه الامين وقد كان يرى ان الحرية السياسية ثانوية التأثير بالنسبة الى « عوامل الوراثة والفطرة والمعاشرة والتهذيب » ، فانطلق يدعو الى نشر الثقافة وتعزيز الفن، توصلاً لهذه الغاية : « ارفعوا اعلام الآداب في البلاد وشيدوا صروح التهذيب واسسوا معاهد للفنون » لا يقصر نشاطه على الكلام المنمق بل يعمل بجد رصين على تحقيق المرام فاسس في بيروت جمعية الحياة الادبية التي ضمت بين اعضائها نخبة من الشبيبة

المثالية الراقية (١) . تبتغي تشجيع الثقافة ورفع مستوى الاخلاق في عصر غمرته الاوباء الاجتماعية الخطرة .

اما في الصومعة فكان امين منصرفاً آنذاك الى اعداد مسرحية عنوانها — السجناء او عبد الحميد في الاتيني — والى وضع قصة اجتماعية اخبارية تتناول الثورة الروحية والمثل الاعلى في حياة الفرد وتصور عقلية اللبناني والسوري المهاجر وعاداته وخصائصه وامكانياته (٢) حتى اذا انجز السجناء في اواسط سنة ١٩٠٩ ، مثلها للمرة الاولى على المسرح الجديد في بيروت بحضور جمهرة الاعيان والمثقفين فافتتحها بكلمة حول المساواة اطرى في سياقها التربية الانكلوسكسونية التي تعود الاتكال على النفس ، ثم قدم الممثلين وروايته وقد دار موضوعها حول حقبة سوداء من تاريخ عبد الحميد حافلة بالمظالم تبعث الامتعاض لدى المشاهدين وتثير فيهم الانفة الانسانية الهاجعة وبالتالي النقمة على العهد .

كثر تردد الامين الى بيروت بعد زواج اخته ادال (٣) فكان يقيم اياماً لديها في الشتاء عندما يدعى الى القاء المحاضرات في المعاهد البيروتية ولا سيما الجامعة الاميركية ، فيتصل بمختلف الاوساط ويزور المكاتب وهي ملتقى الادباء حينذاك يطالعون فيها الكتب الحديثة والمجلات والصحف ويتحاورون حتى اذا اتم عمله آب الى الفريكة الى كتابه خالد في عزلة الوادي الموحية .

واتفق ذات يوم ان دخل امين مكتبة صديقه جرجي عطيه في بيروت وكان هنالك المستشرق الروسي المعروف اغناطيوس كراتشوفسكي (٤) فدار بينهما جدال رصين حول الحركة الادبية والاجتماعية في الشرق الاوسط ترك اثراً عميقاً

---

(١) نذكر بينهم اسعد رستم ، الدكتور الياس عيد ، شبلي الملاط بشارة الخوري قسطنطين نعمه ثابت ، جرجي باز

The Book of Khaled (2)

(٣) قرينة يوسف صادر

(٤) استاذ الآداب العربية في الكلية الشرقية بلننغراد

لديهما وكان يجهل كل منهما الآخر وقد ذكر كراتشوفسكي هذه المقابلة وظروفها في مقدمة ترجمته للريحانيات قال منها : « دخل امين يلبس عوض الطربوش قبعة مخملية تدل على انه اقام في بلاد الغرب مدة طويلة وكان يلمع في عينيه السوداوين الغائرتين نوع من الالم فاستنتجت لاول مرة ان ضيفنا لا يخلو من شلل في يده وقد كان حديثه بعيداً عن كل تطرف وتحزب فلا يضع اللوم على الحكومة وحدها بل على الشعب ايضاً » .

... ويفترق الاديبان بعد هذه الجلسة ولا يلتقيان ، سافر امين الى طبريا يبتغي الاستشفاء في بحيراتها المعدنية ورجع المستشرق الروسي الى بلاده .

ويقيم الريحاني مدة طويلة في طبريا معللاً نفسه عبثاً بالشفاء فلما خابت كل آماله واعياه الاصطبار غادرها كسيراً ناقماً وقد عول على ان يسافر الى اميركة عن طريق فرنسة وانكلترة لعله يجد في مصحاتها ما يبرىء سقمه الوبيل . لقد قعد به فيما مضى عن السفر واجب النضال في سبيل اعلان الدستور اما وقد حقق هذا المرام فلم يبق ما يمنعه عن ان يتأهب مطمئناً طليقاً للرحيل فجمع بعض خواطر وابحاث متنوعة كتبها في المدة الاخيرة ونشرها في جزئي الريحانيات الاولين . ثم غادر بلاد الارز يلح عليه الداء الحرون بالاسراع .

كأنما الالم عامل ملازم لهذا المجاهد الجريء حمله بالامس الى لبنان ليداوي في في طبيعته الانيسة كلوم نفسه وليبعده اليوم عنه ليعالج علة جسده حيثما يحتم القضاء .

٩

ظهرت نظرات المنفلوطي في مصر والريحانيات في لبنان معاً عند بدء النهضة الاجتماعية والادبية في بلدان الشرق الادنى فجاءا كأنهما على موعد سابق بينهما

ينفخان كل من جهة روح تجدد محيية في صدور النشء الطالع ويفتحان عيون شعب اعماها الجهل والتعصب والتقليد .

والريحانيات ، سلسلة من الخطب والمقالات كتبها الريحاني في مناسبات عدة جسمت آراءه في اصلاح الفرد والمجتمع وفي الحياة عامة بل خطرات متفرقة على هامش الايام لا ترتبط بينها صلة معنوية ما تقرأ فيها مثلاً مناجاة للطبيعة او دعوة الى العود اليها (وادي الفريكة . من على جسر بروكلين) كما تقرأ تنديداً بالعادات القروية السخيفة في التعزية وما اليهـا من الاخذ بالخاطر والظواهر الفارغة بلهجة ناقمة كقوله : « اوراء ذلك نفس حقيقية تشعر بما تبذله العين وينطق به اللسان وتتفتت بالفعل كما يتفتت صاحبها امام الناس او هـل وراء ذلك آلة صماء تديرها قوة التقاليد على عجلات العادات المزينة بزيت التجمل والاطراء »او تعريضاً قاسياً بمدنية الغرب وايثاراً صريحاً لمدنية الشرق عليهـــا رغم سيئاتها وذلك لزعمه ان الاولى « مدنية كهرباء وبخار ، مدنية تجارة وكسب ، مدنية حروب وفتوحات واستعمار ليس فيهــا للضمير والذمة اثر من الآثار مدنية حدودها حب الذات والاستئثار وثمارها اليأس والانتحار واما مدنية الشرق فلست بناكر انها مدنية فتور وجمود واستسلام مدنية اصولها القضاء والقدر ولبها محض اوهام ولكن فيها من جميل العادات والتقاليد من جميل العواطف والشعور من شهامة النفس وكرم الاخلاق من الاعتدال في العيش والبساطة ما تفتقر اليـه مدنية الغرب » وانك لتجد في مكان آخر محاولة للتوفيق بين مادية الغرب وروحانية الشرق فتجتمع محاسنها في حضارة مثلى « اريد ان ارى في بلاد الشام والعرب ثمار الانبياء وثمار العلماء على شجرة واحدة » وتسمع صرخة داوية تستفز همة المتقاعسين لشجب اقطاعية الحكام وتحرضهم على ارتياد منهل الثقافة . وترى نتفاً تعميمية عن اعلام الفكر العالمي اعوزها بعض العمق في التحليل والنقد . مختارات تميزت بجزئهـا القارس ونبرتها الثائرة ، وركيكة العبارة مضطربة البيان وليدة المناسبات الطارئة تذوقها الناس اذ ذاك بلهفة جامحة مكبرين جدتها وطابعها الجري ، ثم اعرضوا عنها غير آسفين فيما بعد .

وكأني بالريحاني في مقالاته هذه وهو حديث عهد بالادب، كان يقرأ كتابا يؤخذ بفكرته الرئيسية فيكتب تحت تأثيره مقالاً فلما جاء الا جهيضاً لكنما القراء وقد قصر معظمهم اطلاعه على لغة الضاد، كانوا يتحمسون له ويهللون.

لقد ظهر جلياً في هذين الجزئين الاولين تأثير فولتير وروسو ودروين ونيتشه وغاريسون وسبينوزا وبسكال وغيرهم من ذوي الحظوة لدى الريحاني. او لم يقل ان «كل شاب يخرج من عالم الخرافة المظلم الى بلاد الحرية العامرة يذهب تواً الى فولتير ليقدم له الجزية» واي جزية يؤديها لفولتير خير من ان يكون تلميذه البار يقتبس آرائه في التساهل الديني ويعتمد اسلوبه التهكمي اللاذع في محاربته الآفات الاجتماعية والتعرض للاكليروس.

اما تأثير روسو فلم يكن اخف وطأة عليه من تأثير بطريرك فرنيه ولا اخالك الا لامساً نفسه الرومانطيقي اذ يقول: «ان في ورقة من اوراق التوت سراً لا يكشفه اللاهوت، الى الوادي اذن هناك بين اشجار البطم والزمزريق وتحت ادواح الصنوبر والسنديان اشيد هيكل الايمان.

اراني هناك في بيتي في بيت الطبيعة بل في بيت الله.

في ظل القويسة والغار وبين الصعتر والوزال والخنشار. وبالقرب من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء وفوق النهر الجاري تحت قدمي هذا الوادي الرهيب ابني لك ايتها النفس هيكلاً من الايمان يؤمه في المستقبل البعيد من اخواني والقريب بل اقيم فيه تمثالاً للوداد والاخاء وادعو اليه كل بشر تحت السماء» او عندما يقول: «ان الغاية الفضلى من الحياة هي ان يعيش المرء باتفاق تام مع الطبيعة ونواميسها».

ولا ينعتق امين من سيطرة اساتذيه الاكبرين ساعة الا ليرتمي في احضان دروين «نعم انني ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء، ولا حاجة الى ان يؤيد العلماء اعتقادي فاني لمؤيده بما اعرفه وبما اجهله من لوح هذا الوجود» ليستدرك بعد ذلك ويعزو هذا الارتقـــاء الى العناية الالهية «ان في نشوء الانواع وارتقائهـــا عناية الهية عظيمة، اني لارى يد الله في كل مظهر من مظاهر الحيـــاة» او

ليبشر بالسوبرمان النيتشي فيقول : « وقد يأتي يوم يشاهد فيه ابناء الارض رجل المستقبل العظيم وقد توفرت فيه القوى الحيوية كلها اي القوى الحيوانية والبشرية والالهية الى منتهى الدرجات فالانسان مركب من هذه القوى كلها وهي كامنة فيه الى الابد» ليؤيد الحلولية في غير مكان « اني ارى في كل ما حولي من الطبيعة شيئاً من الجوهر الالهي الذي نسمي مصدره الاصلي الهاً او خالقاً » او يبدي اعجابه بوليم غاريسون فيحذو حذوه في الدعوة الى تحرير الرقيق او يقتدي بيسكال في آرائه بالانسان « ان الحياة سلم اوله الحيوان ووسطه الانسان وآخره الملاك ، ينبغي العناية بالحيوان والملاك فينا على السواء » .

هذه هي باختصار اهم افكار الريحانيات التي سيطرت مدة طويلة على معظم الاوساط الادبية الاجتماعية في هذا الشرق ولا سيما لدى النشء الظامىء الى المعرفة ، فاكبر اكثرهم عبقرية المؤلف وآمنوا بسلطانه فغدا بين ليلة وضحاها فيلسوف الفريكة وقبلة الادباء والمتأدبين في كل قطر مجاور .

اما صفة الفيلسوف فهي من سخاء العامة تطلقها في هذه البلاد على كل ذي علم واسع واديب مجدد كما تدعو بالبيك ذوي الثروة والجاه . فامين لم يخطر له في ريحانياته مطلقاً ان يتعمد بحثاً منظماً لحل مشكلة كونية معينة على مذهب جديد شأن الفلاسفة في كل العصور فيصح ان يقال مذهب ريحاني كما يقال مذهب درويني او ماركسي مثلاً ، بل كل ما شاءه ان يعمم الافكار الغربية التي اقتبلها بقالب شخصي بسيط ليستخرج منها نصائح عملية تفيد ابناء قومه وتظهر سعة اطلاعه وتفوقه الفكري وقد اتفقت له بعض خطرات فلسفية عابرة استمدها من صميم اختباره المثمر فنثرها «بذوراً للزارعين» هي ابعد من ان تكون مذهباً فلسفياً او شبه مذهب .

قلت الكتب العربية التي تهافت الناس على قراءتها تهافتهم على قراءة الريحانيات ، وقد بقيت موضوع الصحف الادبية الاهم مدة طويلة تحللها وتقرظها وتقابل بينها وبين نظرات المنفلوطي وتعلق ، كانت مي زيادة وهي بعد متدرجة في الحقل

الادبي في طليعة المعجبين بهذا التجدد الجريء . اما اعوان الامين وكانوا قد قرأوا اكثر فصولها تدريجاً لدى نشرها في الصحف فرأوا فيها فتحاً جديداً في ميدان الفكر والكتابة .

ولعل اهم البواعث على هذا التهافت العجيب اسلوب الكتاب الطريف ومؤاتاة مواضيعه لظروف الساعة في حقلي السياسة والاجتماع . كانت الثقافة الاجنبية في مهدها يومذاك والشباب المتأدب يفتش عن استاذ يوجه حيويته وينقر على وتر طموحه ، فلم يجد افضل من الريحاني المجدد المحرر يتخذه دليلا له فراح يغترف من ريحانياته نهماً وهو يخالها المثل الاعلى في الانتاج العقلي ؛ وهذا ما يبرر فتور قراء العربية اليوم عن مطالعة الريحانيات ،بعد ان انفتحت امامهم معالم الغرب وتسربت اليهم تياراته الفكرية واساليبه ومذاهبه .

وحري بنا في هذا المجال ان نقول كلمة على الشعر المنثور ، ذلك الزي الحديث الذي طغى على اسواق الادب الغربي وكان الريحاني سباقة الى تبليده في آدابنا (١) فحرر الشعر من قيود الوزن والقافية وجعله سلساً طيعاً يؤدي نزوات النفس على اختلافها بامانة ودقة ، لكنا افقده شيئاً من روعة موسيقاه على الاغلب، وقد وصف الامين هذا اللون الدخيل قال : « يدعى هذا النوع من الشعر الجديد Vers libres وبالانكليزية Free verses اي الشعر الحر او بالحري المطلق وهو آخر ما اتصل اليه الارتقاء الشعري عند الافرنج وبالاخص عند الاميركيين والانكليز فملتن وشكسبير اطلقا الشعر الانكليزي من قيود القافية وولت وتمن الاميركي اطلقه من قيود العروض كالاوزان الاصطلاحية والابحر العرفية . على ان لهذا الشعر وزناً جديداً مخصوصاً وقد تجيء القصيدة منه على ابحر عديدة متنوعة . وولت وتمن هو مخترع هذه الطريقة وحامل لوائها وقد انضم تحت هذا اللواء بعد موته كثير من شعراء اوروبا العصريين » . بيد ان الريحاني معرب هذا الفن لم يبلغ شأوه القصي فيه ، ولعلك لاحظت ذلك في

---

(١) عرف الريحاني بابي الشعر المنثور .

قصيدته – نفحة من لؤلؤة – التي مر ذكرها وهي نموذج عن سائر قصائده النثرية ، لقد حسنت صناعتها وقوي سبكها ولكنها افتقرت الى ايحاء خاطف تنفثه دغدغة الانغام خلال الشعور .

ومهما يكن من امر فالريحانيات وان لم تضف شيئاً جديداً على التراث العالمي هي لا شك حدث تاريخي له شأنه في الشرق، في عصرنا الحاضر ، شجعت الادب الشخصي الصريح وعودت الجرأة في التجديد قبل جبران واثارت خصوصاً الوعي الاجتماعي السياسي في ضمائر القابلين فنمت على اثرها الاحزاب الاستقلالية تنادي بالاصلاح العملي والتحرر الناجز .

انها المدرسة الاستقلالية الاولى لهذا العهد تتلمذ عليها الكثيرون من ادباء اليوم وخطبائه ورجاله السياسيين . انها مهاز تحررنا الناجز التام .

١٠

قرر الامين سفره نهائياً الى اميركة رغم دموع امه وتوسلاتها فودع الاهل والوادي والصومعة وذرف عبرة لاهبة على صفحات ماض طواها في صميمها قد لا يعود اليها .

وقبل ان يبارح لبنان ، اقيمت له حفلة وداعية في بيروت تكلم فيها بشاره الخوري (الاخطل الصغير) ، اسكندر العازار ، جرجي عطيه وابرهيم حيدر فاشادوا بفضله على النهضة الادبية والسياسية في هذه البلاد ثم ختمها هو بكلمة في « قيمة الحياة » وكان الفراق وغصة الفراق ...

اسبوعان كاملان بين الماء والسماء ، وامين رهين مشيئة الامواج يفكر في لبنان وباريس ونيويورك « في الاول روحي وفي الثانية قلبي وفي الثالثة قوتي

وثباتي » حتى وصل اخيراً الى مرسيليا ، فانتقل منها تواً برفقة صديقه النحات يوسف الحويك الى باريس ، يزور مستشفياتها ويستشير اطباءها الاخصائيين. وتشاء الصدف الواعية ان تجمع اميناً ويوسف في مدينة الفنون برسام لبناني شاعر لم يكن غير جبران وكان يقيم يومئذ في « الكارتيه لاتين » يدرس الفن التصويري في محيط متحفي اللوفر واللكسمبورغ ومكتب اوغست رودين الرسام الشهير « رأيته في باريس مدينة النور يحيي الليالي على نور سراج ضئيل ورأيت بنات تموز ، نسوة الخيـــال ، يطفن حوله في سميرات باريسيات ورفيقات اميركيات فيزدنه بهجة والماً ووجداً » (١) .

وقضى الفنانون الثلاثة اياماً في عاصمة الجمال يتصلون باوساطها الفكرية والفنية وقد تجانست عقلياتهم على نوع ما ، ثم واصلوا سفرهم الى لندن يتعرفون الى عوالمها وهنالك خطر لهم ان ينشئوا في بيروت عند ايابهم مسرحاً كبيراً لتشجيع التمثيل وضعوا تصميمه فيما بينهم وراحوا يدرسون جدياً امكانيات تحقيقه.

ويسافر امين من العاصمة البريطانية الى نيويورك يحمل الى اللبنانيين المهاجرين «بعض نفس الالهة من لبنان» فاذا به غريب بينهم بعد غيبة جاوزت السنين الست... لقد خاب سعيه في انكلترة وفرنسة واعياه التفتيش عن دواء ناجع لالمه العصبي المزمن فعلق كل آماله على اميركة ام الصناعة الحديثة ومهبط العلوم العملية فاذا بها تخيبه بدورها فيستسلم لطب الزمان متجلداً عـــلى احتمال النوبات العصبية برباطة جاش وابتسام حتى اذا تواترت عليه ازماتها عمد الى اعمال فكرية شاقة تستنفد حيويته فتنسيه واقعه الاليم .

كان الامين اثناء مكوثه في لبنان على اتصال ترسلي وثيق باصدقائه في اميركة لا سيما اعضاء نادي الثريا والادباء مواطنيه ، فجدد علاقاته بهم بعد عودته ، واخذ يكتب مقالات ضافية عن تطور الاحوال السياسية والاجتماعية في لبنان وسوريا وعن ترقيها الحثيث ، نورت اذهان المغتربين عن حقيقة بلادهم . اما برنامج عمله فلم

(١) ذكرى جبران .

يكن ليختلف كثيراً هناك عما كان عليه في لبنان . ايام تتعاقب مثقلة بالاعمال لا تعرف للفراغ معنى . فالامين الذي فطر على السخاء كان يضن بساعة من وقته تذهب هدراً ،يدلك على ذلك سعة تصاميمه الادبية وخصب انتاجه .

وتم كتاب خالد في اوائل سنة ١٩١١ فسلمه الى الناشر ، يفعمه تفـــاؤل كبير بنجاحه ولا غرو فقد ضمنه شطراً نابضاً من صميمه .

***

اخرجت شركة Dodd Mead النيويوركية كتاب خالد سنة ١٩١١ فلم يلبث ان انتشر في الولايات المتحدة وانكلترة ومصر بسرعة تدهش ، فتناولته كبريات الجرائد فيها بالنقد الوافي مثنية على اسلوب الاديب الطريف وطول باعه في اوضاع اللغة الانكليزية وتعابيرها (١)

وكتاب خالد ، درس اجتماعي قصصي فيه تصوير لنفسية المهاجر السوري او اللبناني(٢) وتحليل لاخلاقه وعاداته في الغرب يشتمل على ثلاثة اقسام هي – في السوق – في الهيكل – في كل مكان – بدأ المؤلف كلا منها بانشودة ترمز الى المغزى العام يناجي الانسان في اولها فيقول : « مهما جزل خيرك ومهما تفاقم شرك ، لا ازال اخاك. مهما عليت في مدارج الحياة ومهما تسفلت لا ازال اخلص لك واؤمن بك واحبك » وفي ثانيها الطبيعة « ايتها الام الازلية السماوية الجهنمية هاندا امامك اخر ساجداً عند قدميك اسلم نفسي اليك . . عانقيني واهمسي في اذني بعض اسرارك ، املئي حواسي وكياني من نفحاتك ونسماتك افتحي امامي اعماق روحك يسر الي

(١) « ان العنصر الشرقي بواسطة كتاب خالد قـد تبوأ مقعده من الادب الانكليزي » – بوستون هرالد – « ان لامين الريحـاني منحة سامية من جمـال اللغـة » – نيويورك بوست –

(٢) لم يكن يميز امين يومذاك بين اللبناني والسوري

بعض ما فيك من قوة وعزة وعظمة وجلال ، وفي ثالثهـــا الى الله « عبثاً طلبتك ايهـــا الرب الاله في اديان الناس وعبثاً بحثت عنك في سرادب عقائد الناس » .

وخالد بطل القصة ، شاب بعلبكي هاجر الى نيويورك مع صديقه شكيب حيث اقاما يبيعان «بالكشة» فاتيح له ان يدرس مدنية الغربيين ولا سيما الامير كيين عن كثب ثم عاد الى لبنان متحرراً راقياً يبدي آراءه الخاصة في الدين والمجتمع فجر عليه نقمة الاتحاديين فيما تعلق بسياسة الشرق الثورية واليسوعيين والاكليروس عامة من حيث حرية الفكر والعقائد المذهبية . انه ليمثل المهاجر الطموح الذي كون ذاتيته بفضل جهاده الشخصي ينظر الى المدنية الشرقية بعين الغربي فيتمنى لو تنتشر العـــلوم والصناعة الحديثة في بلاده والى الغربية بعين الشرقي فيكوز بالروحانيات .

انه مسيحي المولد شرقي الصبغة اسلامي اللهجة ، يسرد آراء الريحاني ومبادئه في التساهل الديني والتوفيق بين ذهنيتي الغربيين والشرقيين واصلاح الفرد ، بل هو الريحاني نفسه يعرض افكاره باندفاع .

انها نظريات امين المتفرقة المتباينة التي عبر عن اكثرها في ريحانيته تأتلف هنا وتنسجم في وحدة متجانسة فتظهر رأيه في المدنية المثلى ، مدنية متزنة حرة توازي فيها العقل والروح ، وفي الفرد المثالي ، فرد تحرر من العصبية والجهل والتقليد وصهر في ذاتيته ميزات العالم الغربي والمتصوف الشرقي . وهاك الآن مقطعاً من هـــذا الكتاب كانموذج عن نهجه الكتابي المبتكر .

« على جادة الروح الشاملة ، العالم كله امامي طرباً متلألئاً يغني انغام الحرية والايمان والرجاء والصحة والقوة والفرح .

عد الى المدنية يا خالد – اي حيث تجد الصدق والثقة والامانة والحكمة على الدوام في عذاب وفي نزاع وفي غلبة .

لا لست ابالي بما يقال من ان روح الذكاء والقوة ، روح الحرية والتهذيب التي

لا بد من ان تكمل دورتها حول الارض هي ابداً مسيرة بعامل المصلحة الذاتية الغريزي . هذا امر لازم - لا بد منه - فطرة المصلحة الذاتية يا اخي سارية في عروقنا - مجالس السياسة تزول - الشعوب تنهض وتسقط ولكن الروح الابدية - مصدر الافكار السامية وان تغلبت عليها الايدي المختلفة تبقى سائرة تنقى وتتقوى في دورانها .

للشرق والغرب ارنم - للنهرين العظيمين اللذين بهما ينتعش الانسان ويتقوى ويتطهر جسداً ونفساً لكليهما اغني وبهما افتخر ولهما اوقف حياتي ومن اجلهما اعمل واتألم واموت .

اخواني انَّ اعظم الناس ارتقاء ليس اوروبياً ولا شرقياً بل هو الذي يختار من مزايا الاثنين مزايا النابغة الاوروبي ومزايا النبي الاسيوي .

اعطني يا شعوب الغرب القوية لوازمي المادية في هذه الحياة وانت ايها الشرق، يا بلادي اشركيني بميراثك الروحي » .

... انني اصيح معك يا غاتي «النور وكثيراً من النور »

ومعك اقول يا تولوستوي « المحبة وكثيراً من المحبة » .

ومعك انادي يا ابسن «الارادة وكثيراً من الارادة » .

نجح الريحاني هنا بنوع خاص في توفيقه بين الصيغة والمعنى، فجاء اسلوبه شعرياً في مواقف التأملات الروحية ، اخبارياً في السرد الواقعي وخطابياً ساعة الاقناع والعظة . الا انه جنح الى التكلف احياناً فتعمد الفاظاً ندر استعمالها وتعابير معقدة غامضة ،فضلاً عن ان اسراعه في تهيئة الفصول الاخيرة اورثها بعض الاضطراب في اللحمة والتقلقل في تسلسلها المنطقي .

اما اشخاصه فاحياء على الاغلب يعيشون في بيئات حية ايضاً بارزة الصبغة المحلية ، لكنهم يسيرون احياناً حسب خطة مرسومة وضعها المؤلف لهم من قبل فتخالهم عمياناً يساقون سوقاً الى غاياتهم لا سيما ساعة يسترسلون في المواعظ التي لا تنتهي فتتساءل عندئذ هل انت تسمع الريحاني يخطب ام تصغي الى بطل الكتاب .

فلو صرفنا النظر عن هذه العيوب لوجدنا ان للكتاب قيمة ادبية لا تنكر من حيث اسلوبه الشخصي النابض وتصاويره الواقعية النـــاطقة وتفهم عقلية الشرقي المهاجر ، جعلت صاحبه في مصاف مؤلفي اميركة البارزين تتحدث عنه اوساط الادب باعجاب وتكتب عنه الصحف معلقة مقرظة .

انه الطموح توجهه الارادة الواعية ، ويغذيه النشاط المستمر يجعل توق الامس واقع الحاضر ، اين امين المحالفة الثلاثية العابث المتقلب من امين اليوم ...

١١

كان امين ولعاً بمطالعة سير العظماء والابطال لا تقع يده على احداها الا التهمها وفتش عن سواها ، فاتفق مرة ان استوقفه بصورة خاصة كتاب الابطال وتأليهم لكرليل وهو يبحث في امجاد العرب الغابرة ورسولهم الاكبر فاثار اعجابه بذلك الشعب الاثيل ، ولم يكن يعلم عنه يومئذ ، على حد قوله ، سوى ما كان يسمعه ايام الطفولة «هس جا البدوي. والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام بعبعاً تخوف به ولدها » (١) وحمله على الاستقصاء عن حقيقتهم باهتمام « كان كارليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب ، وقــد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي سيد العرب الاكبر النبي محمداً فاحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم » (١)

قرأ الامين كتاب كارليل مرة ومرات كما قرأ كل ما اتيح له عن العرب وهو بعد لم يرتو . ان حبه لهذا الشعب الباسل تمكن منه حتى حمله على ان يفكر بزيارة الجزيرة ويدرس احوالها عن قريب . فلما اقبل صيف سنة ١٩١١ عـاد الى لبنان

---

(١) مقدمة ملوك العرب

الى الصومعة، مأخوذاً بذاك الخاطر الغريب وشرع يهيء السبيل لتحقيقه . وهنالك في الفريكة اجتمع بصديقه القديم محمد كرد علي ، وكاشفه بعزمه قائلاً : « في نيتي ان اهجر حتى هذه الوادي وفي نيتي رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية ، على هجين يبعدني عن كل مظلمة وكل عبودية ، فهال صديقي وقال : نسير سوية ، واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يمهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود . لكن الايام عدوة الاحلام او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في القلوب، تأثرت السلطة الاثيمة صديقي كردعلي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكة ويفر هارباً من سورية » (١)

وهكذا ارغمت الريحاني الظروف القاهرة على ان يؤجل رحلته الى ان تتهيأ له الاسباب ، فينزوي في صومعته من جديد يواصل الابحاث التي كان بدأها في الولايات المتحدة .

وفي تلك السنة نفسها كانت ماري زياده تصطاف في ظهور الشوير (٢) «في كوخها الاخضر » ، فسمعت بعودة الريحاني الى لبنان فشاءت ان تتعرف اليه وقد تذوقت ادبه الشخصي في الريحانيات وايدت دعوته الى الجديد فابدت رغبتها تلك الى صديق الامين لم يلبث ان ابلغه الخبر فاكبر هذا جرأتها الواعية وقصدها زائراً الى حيث كانت تقيم مع ابيها .

وهناك في الكوخ الاخضر جرت المواجهة الاولى بين الريحاني ومي . غريب وغريبة في بيئتيهما ، شرقيان مجددان ثائران على الرجعية يتكاشفان ...

***

(١) مقدمة ملوك العرب

(٢) من خطاب مي في مصر سنة ١٩٢٢

دعا الريحاني مياً الى زيارته في الفريكة فلبت واقبلت بعد ايام مع ابيها وبعض الادباء « تزور جانباً من الوادي متلمسة خطوط الصخور والاشجار متلمسة هينمة النسائم وهدير النهر المهرول الى حضن البحر » ومتلمسة ايضاً ذلك السر الغريب يجذبها الى قرية ففراء .

ويأتي الخريف وترجع مي الى مصر وللفريكة منزلة لديها . اما امين فقدوجد في نزيلة الكوخ الاخضر المثل الاعلى الذي تخيله للفتاة الشرقية الناهضة ، انوثة باهرة وذكاء وذوق واتزان ، فانطبعت ملامحها الفارضة في صميمه تعد شعوره ساعة الاستلهام .

ويتنسك الامين في الفريكة كعادته يدرس ويؤلف ويتأمل فيتوافــد اليه الرفاق المخلصون مزودين باخبــارهم يعالجون معه مشاكلهم ويتعاونون في حقول الادب والسياسة والاجتماع في جو من التفاهم والمودة ، وهو الى ذلك لاينى يحاول تحقيق رحلته الى الجزيرة . ولكن الاقدار الهازئة كانت تقاومه كل مرة وتحطم امانيه حتى « طوحت به اخيراً وابعدته عن الوادي وعن البلاد العربية كلها » فركب البحر خائباً كسيراً الى العالم الجديد وقد ترك شطراً منه في هذا الشرق حيث ذووه وصحبه والفريكة ومي ...

١٢

وصل الريحاني الى نيويورك ساخطاً على الزمان ناقماً ، فهاجه الحنين الى بلاده الهادئة ، الى لياليها المقمرة ، الى انغام الفجر وضيافة الطبيعة ، فثار ثائره على مدينة البخار والكهرباء وخاطبها غاضباً يقول :

« احشاؤك من الحديد وفيهـا عقمه وصدرك من الخشب وفيه سوسه فمك من

النحاس وعليك صداؤه جبينك من الرخام وفي جمالك جموده . تشربين ذوب الابريز وتأكلين معجون اللجين وتنتعلين اجنحة العلم وتلبسين الفاخر من الحرير والنادر من الحلى وقلبك قار يشتعل .

ابنت الهمس والصياح ليس في صوتك نغمة من انغام الفجر والصباح في صوتك رنة الذهب وجموده ان في الملاهي وان في الاسواق ان في المصارف وان في الكنائس .

ابنت الثروة والاحتكار في مخازنك خيرات الارض وفي خزائنك الاموال والحلى وفي قصورك عجائب الحضارة وفي جاداتك بهاؤها وضجيجها وهولها وعجيجها وفي اكواخك الظلمة والفقر والجوع والانين »

غريب امره هذا الرجل ، يعيش في لبنان مدة فيسأم الحياة فيه تنقضي على وتيرة واحدة ويرحل الى اميركة ليمكث شهوراً ثم ينقم عليها وتحلو له العودة الى الوطن ، كأنما العالم جديده وقديمه لا يتسع له على رحبه فيفتش عن هنائه في عالم امثل تصوره في خطوطه الكبرى وحاول ان يجسمه ويعيش فيه بما كتب ويكتب .

بدأ الافق السياسي العالمي يتلبد شتاء ١٩١٤ وتوقع النـاس نشوب حرب جارفة بين ساعة وساعة ، فساور الريحاني خوف مغبة الامر لان حرباً تشتعل في اوروبة تنفث لهيبها على الدنيا قاطبة وتقطع الصلات بين اطرافها ، فتواترت رسائله الى اهله وصحبه والى اللبنانية المتمصرة مي خافقة بشعور واجس حذر تسرب بين ليات كلام لم يشأ الافصاح كله .

ويحدث المنتظر وتقع الحرب الكونية الاولى ويلقي غليوم الطاغية واعوانه الرعب في القلوب ، فاتخذ الريحاني موقفه صريحاً لجهة الحلفاء لا سيما وانه وجد في ذلك مجالا للعمل على تقويض السلطنة العثمانية وبالتالي تحرير العرب فاخـذ يكتب في الصحف ويساهم في تهيئة الرأي العام الاميركي للنقمة على الالمان . وقد كانت اميركة يومذاك القـارة الوحيدة التي لم تبلغها نار الحرب ، فبقيت فيها الحياة السلمية على طبيعتها ، تجري الحفلات المختلفة في مواسمها وتنظم المعارض

والمباريات كالمعتاد كما لو ان الكارثة العالمية لم تكن . واتفق في تلك السنة ان اقيم في سان فرنسيسكو معرض للرسم واسع النطاق ، نالت جائزته الاولى آنسة سكوتلندية الاصل تقطن ولاية كاليفورنيا اسمها بوتا كابس ، فنشرت صورها اكثر الصحف الاميركية ونوهت بمزاياها الفنية البارزة متنبئة لها بمستقبل نادر ، فثار فضول الريحاني الى التعرف اليها وقد عهدناه يهوى التصوير منذ الحداثة .

وتشاء الصدف ان تجمع امينا وبوتا في حفلة شاي راقصة في نيويورك احياها صديق مشترك ، وكانت الرسامة قد قرأت ـ كتاب خالد ـ وتذوقت نهجه الشعري ، فتحدثا قليلاً عن الفنون ثم رقصا معاً ليوثقا عهد التعارف الجديد . وكان ذلك في اوائل سنة ١٩١٥ .

وفي تلك السنة نشر الريحاني ـ زنبقة الغور ـ وهي قصة اخلاقية اجتماعية جرت وقائعها في فلسطين ، تكشف الستر عن بعض الآفات الاجتماعية الخفية وتظهر تأثير البيئة في تنشئة المرء كان نجاحها بين بين ولا غرابة فقد خلت لحمتها الروائية من التماسك المنطقي وافتقر لونها المحلي الى وضوح مميز عدا ان التلقين المدرسي طغى على اشخاصها وطمس طابعهم في اكثر المواقف .

وتسير الحرب في طريقها ويزداد قلق الامين على اهله لا سيما وقد بلغه ان الجبل اللبناني المستقل خضع مؤخراً لسيطرة الترك وتفشت فيه المجاعة والاوبئة ، فضاق به انكماشه واحس بحاجة لازبة الى جو ودي آمن يحرره من تلك السويداء الغليظة التي ولدها لديه مزيج من العوامل النفسية والجسدية المتباينة ، غد عابس يخنق الامل ، وجع متقطع يحز الهدوء ، وعاطفة مبهمة فطمها البعاد الجاف .

كانت بوتا كابس اخصائية ماهرة في وضع السيناريوهات تأتي نيويورك بين الحين والحين لتعرض انتاجها على الشركات السينمائية التي تعاقدت معها فتنزل يومين او ثلاثة في احد الفنادق هنالك تطلع على مجرى التطور الفني ثم تعود الى ولايتها . واتفق يوماً ان اقامت في فندق يحله الامين فالتقيا فيه المرة الثانية وتوطدت صلات التعارف بينهما ، وكان الربيع في اوج خضله ...

آنس الامين المضطرب ببرتا كايس واعجب بفطرتها وطراوتها فترقب الفرص ليلتقيها ، واخذ التفاؤل الغـائر يشع في عينيه من جديد ، فنمت الصداقة سريعاً بينهما يسمعها خير ما كتب وتريه زهرة رسومها . فتلائم ذوقاهما وغايتاهما في الحياة وشعر كل منهما انه يكمل الآخر .

انه الحب المبني عـلى التقدير المتبادل يشق طريقه خلال الصداقة من حيث لا يعيان .

١٣

شقراء هيفاء ،برتا ،نضرة الصبا سريعة الخاطر خفيفة الروح استهوت فؤاد الامين الشاكي الفراغ فصار اذا اتعبه الالم وارجحته الوساوس لا يجد عزاء الا بقربهـا ، ان انفاسها وحدها كانت قديرة على تخدير لوعته الناهشة .

وتنقضي السنة ويتواتر الوصال بين العشيقين والامين يكتشف كل يوم ، بل كل ساعة ، حسنة جـديدة لدى عروس احلامه حتى بلغ الحب لديه اقصى مداه فاوحى اليه الزواج ... لقد جمعت برتا الى جمال الانوثة الاخاذ جمال الخلق والفن والادب ، وهل هناك خير من هذه المزايا فيمن يختارها امثاله شريكة لحيـاتهم . سؤال طالما طرحه امام وجدانه الهادىء ، فكان ارتياحه الكامل ابلغ جواب وفي ذات يوم بينا هما سابحان في اثير الانخطاف ،كاشف امين برتا بفكرته تلك فاطرقت حيناً ثم حققت مناه وهي موقنة من تأمركه المطلق . ولم يدر في خلدها آنذاك ان الطبع قد يغلب التطبع فيه يوماً !!

هذه هي احلام الخيال المبهمة تتجسد اليوم واقعاً اكيداً . وها هما امين وبرتا

في المحكمة المدنية في نيويورك مطرقان ينفرسان بالغيب بينما القاضي يجيء لا مبالياً عقد القران (١) .

***

كانت الحرب في اشد استعارها تلك السنة وكانت الصحف الاميركية ظمأى الى اخبار وثيقة المصدر عن ميادين القتال فاوفدت مجلتا البوكمن والفوروم امينا وكان يحرر فيهما الى الجبهة الغربية ليطلعهما بتفصيل على الوضع الحربي فيها فاصطحب هذا عروسه واتجها معاً الى فرنسة حيث قضيا فصل الصيف ابان احتدام المعارك يتفقدان الحالة فيها عن كثب قياماً بمهمتهما ويسيحان متذوقين اشهى ايام العسل فاتصلا في باريس ببعض الاصدقاء والادباء ولا سيما شكري غانم وخيرالله خيرالله وتعززت اواصر الالفة بينهم ولما اشتد الخطر على فرنسة هربا الى اسبانيا وهنالك اخذا يطوفان بين اشبيلية وغرناطة وقرطبا يتأملان في آثار العرب الشاهد الحي على امجادهم التليدة « ان في قلب الاندلس ملجأ قلما يلجأ الاندلسيون اليه . هناك مقام لا تسمع فيه ضجة العيد ، مقامات كان لها من السرور ايام زاهرة ومن المجد اعلام وقباب ما تبقى منها اليوم غـير قصور متهدمة نبتت في جدرانها الاعشاب ونظم العنكبوت مرثاته فوق النوافذ منها والابواب وجلس في عروشها العالية السكون ودفن في جناتها المهجورة الشعر والادب والفنون طلول كانت بالامس معاهد وقصوراً ، هذي آثار العرب وقد امست عروشاً لربة النسيان ومدفناً لمجد الزمان وعبرة بليغة للانسان » (٢)

وتعلن الولايات المتحدة الحرب على المانيا سنة ١٩١٧ فيخشى الامين ان تنقطع المواصلات عبر الاطلنطي فيغادر اسبانيا مع قرينته الى نيويورك . وهنالك

---

(١) سنة ١٩١٦

(٢) الريحانيات الجزء الثالث

عهد اليه سفير فرنسة بمهمة سياسية في المكسيك ترمي الى توحيد صفوف المغتربين لنصرة الحلفاء ، فسافر الى مكسيكو حيث اخوه يوسف التاجر المعروف واخذ يخطب في انديتها ويتصل بذوي الشأن فيها من المهاجرين يحرضهم على التكاتف والتضحية في سبيل الحلفاء . الا ان عمله هذا لم يكن ليروق طويلا حكومة تلك البلاد المتغرضة للالمان فلم تلبث ان ابعدته عن حدودها، فعاد الى نيويورك يشترك في لجنة تحرير سوريا ولبنان ويستأنف نشاطه الصحفي والخطابي حول القضية العربية ، وكانت ثورة السلطان حسين قـــد شقت طريقها ولاقت بعض النجاح «وافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب ، رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية فكنت اقوم ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب » وهو الى ذلك لا ينى يحث المغتربين على محاربة تركيا واغاثة اخوانهم المقيمين وقد نكبتهم المجاعة الجامحة « اخواني ابناء وطني ، نحن لا ندعوكم الى الحرب في سبيل امة غربية اجنبية بل في سبيل امتنا وبلادنا ندعوكم الى الدفاع عن بيوتنا عن حريمنا عن اهلنا المنكوبين اليوم الى السلاح لاسترداد حقوقنا المسلوبة ولانقاذ بلادنا من براثن الغول التتري . الوطن يناديكم البقية الباقية فيه تستنجدكم تستغيثكم . ارواح الاحرار ، ارواح شهداء الامة تصرخ بكم . يا ابناء سوريا الثأر الثأر الانتقام الانتقام ارواح الالوف من قومنا الذين ماتوا جوعاً وتجويعاً تناديكم اليوم يا بني لبنان وتدعوكم الى الجهاد الى السلاح » .

ان الامين هو هو ، قبل الزواج وبعده ، اديب خطيب مجاهد لا يتوانى في اداء رسالته ولا يلوى له عود .

١٤

كثيراً ما تاق الريحاني الى جو عائلي آمن ينسيه مصاعب الحيـــاة بعد ان سئم عدم الاستقرار المستمر ، فنعم لاول مرة في اميركة بعد زواجـــه بتلك الطمأنينة العذبة التي الفها من قبل في كنف ام امين وسعدى بالفريكة واعطى لقلمه مداه ...

اتم سنة ١٩١٧ – خارج الحريم او جهان – فنشرتها شركة الفنون في نيويورك ، قصة اجتماعية مسرحها تركيا الغائصة في لجة التعصب والجهالة صور فيها ما تعاني الصبية هنالك من مشقات واضطهاد اذا ما خلعت نير العـــادات الجائرة وسارت على غرار اختها الاوروبية . وقد اختار امين صفحة قاتمة من التاريخ العثماني ، عهد وصل الالمان الى فروق بعد نشوب الحرب وسخروا دفة الحكم لمصالحهم ، تقع تركيا بين ناري الحلفاء اعدائها والالمان اعوانها فتستغيث صارخة « ربي نجني من اصدقائي واعدائي » وفي هذا الموقف الحرج تظهر جهان بطلة القصة وهي الفتـــاة الراقية التي تجندت الدفاع عن حقوق المرأة وعن كيان تركيا المهدد وقد طلقت زوجها الاول لاشراكه بهـــا وارادت ان تتزوج ثانية لتلد منقذين لوطنها ، فتعاندها الاقـدار ويغتصبها قائد الماني كان يحبها فتقتله بعد ان حملت منه طفلها المنشود .

ان هذه القصة تستهدف غايتين اثنتين ، احداهما اجتماعية قطباها تحرير المرأة والتساهل الديني ، والاخرى سياسية هي اظهار سيطرة الالمان على الاتراك ، اسلوبها الروائي قريب المتناول عصي اللهجة يفتقر الى تسلسل منطقي وتحليل عميق . اما تأثيرها فكان بليغاً جداً في اوساط المهاجرين وكلها ناقمة اذ ذاك على الاستبداد التركي توحب بما يغذي سخطها على ذلك العهد الاثيم .

قضى امين وبرتا سنتيهما الاولين بعد الزواج في تفاهم ومودة نادرين ، يتبادلان الرأي الصريح في انتاجيهما ويتناقشان حولهما كفنانين صديقين وقد وضعا برنامجاً منظماً لحياتهما اليومية يتمشيان عليه بدقة صارمة فكنت تراهما في ساعات العمل في مكتبيهما قابعين منفردين ، برتا منصرفة الى الرسم وامين الى الكتابة منقطعين عن العالم الخارجي تمام الانقطاع .

انتصرت ثورة لينين في روسيا وسيطر البلاشفة على الحكم وغدت البلشفة ؛ حقيقتها ونظرياتها ، حديث العموم فراح امين يهيء سلسلة ابحاث تاريخية تتناول مصادرها وتطوراتها خلال العصور ، وفي تلك الاثناء توطدت علاقاته بادباء المهجر ولا سيما جبران ونعيمه وحداد وعريضه . فكانوا يجتمعون غالباً في مكتب – مجلة السائح – وهنالك يتبادلون الرأي في الشؤون الفنية والادبية ويتسامرون في جو من المودة المرحة .

* * *

اعلنت الهدنة في خريف سنة ١٩١٨ فتنفس العالم ملء رئتيه واخذت المواصلات الدولية تعود تدريجاً الى مجراها الطبيعي فبادر امين يستعلم عن احوال بلاده واهله وصحبه بعد ان حلت بهم اروع النكبات فكتب الى امه واختيه يخبرهن بزواجه ويستوضح حالهن بتفصيل وقد ارسل اليهن شيئاً من المال وبعض رسوم له ولزوجه ، كما كتب الى اصدقائه والى مي يخبرهم بما صار اليه ويبثهم شوقه بعد غياب طال وامض .

وفي اوائل سنة ١٩٢٠ اخرجت شركة ستراتفورد في بوسطن The Descent of Bolshevism (١) فقيض له نجاح يذكر نظراً لطرافة

(١) تحدر البلشفية

الموضوع وشهرة المؤلف . حاول الريحاني في كتابه هذا ان يجعل نشوء تلك الحركة الفكرية في الشرق - منبع كل خير وشر - فبحث في تاريخ الحركات التي قامت في بلاد الانبياء وكان لها بالشيوعية صلة ما من المزادكة الى الخوارج والقرامطة فالحشاشين لينتقل الى حركة المتنورين التي قام بها في المانيا في اواخر القرن الثامن عشر الاستاذ ويسهاوبت واشياعه . اما علاقة هذه الحركات بالبلشفية فمنشؤها كلها، حسب زعمه، عن التمرد على القوانين الظالمة والتفاوت بين حقوق الشعوب وموجباتهم ولا فرق بينها البتة الا في المحيط والاسماء فقط ثم يخلص اخيراً الى القول «ان البلشفية كسائر الثورات الاصلاحية التي سبقتها عاصفة تهب حيناً ثم تهدأ بعد ان تورث نتائجها الحسنة لان الامة التي تخوض عباب الثورة تكسب قوة أدبية وروحية توازي بل تفوق ما خسرت من القوى المادية».

وتتسع شهرة الاديب في العالم الانكلوسكسوني تكتب عنه كبريات الصحف باعجاب وتتسابق على نشر كتاباته التي بدأت تدر عليه مالاً وفيراً ينفقه عن سعة لا مبالية . واخذت اخبار الوطن ترده على التوالي ان في الصحف وان في رسائل الخلان ، وقد كتب يومئذ الى صديقه الحميم بشاره الخوري صاحب البرق يقول : «ادعو لك وللبرق بالتوفيق والاقبال . كنت اود ان ابعث اليك بمقالة تنشرها في الجريدة ولكن الناس مشغولون اليوم بالسياسة ولا سبيل للاداب الى القلوب والعقول و كتاب السياسة عندك كثيرون .هل لك ان تكتب الي وتطلعني على بعض الاخبار التي يتعذر عليك نشرها ؟...

«يتبادر الى ذهني ويتسارع الى قلبي اسماء كثيرين من الاصحاب والخلان ولكني صرت اخشى ان اسأل عن احد وصرت اشعر اني غريب في تلك الديار التي احبها كثيراً فسلم كثيراً على كل من يسألك عني من الاصدقاء ودم سالماً عزيزاً موفقاً لاخيك امين» .

نعم كان يشعر على حق انه غريب عن بلاده وقد هجرها منذ ثمانية اعوام فراح يفكر في العودة اليها طلباً للطمأنينة والهدوء ... ويصله جواب مي مثقل بالعتاب

والشكوى المبهمة بعد ان اخبرها بزواجه ووصف لهـــا قرينته باعجاب فثار حسد المرأة لديها ولعنت قدراً مشؤوماً احلها لبنان .

فاحس امين عند ذاك ان الماضي الذي تناساه في فترة اضطرابه اليائس يبعث الآن حياً امامه ويرهق خطاه .

١٥

دامت العلاقات الودية طويلاً بين الريحاني وجبران ،بين واقعي يبتغي الاصلاح العملي وخيالي ينشد المطلق ولا غرو فقـد جمعت بينهما رابطة الفن والصداقة ،كان جبران رساماً شاعراً والريحاني نقادة فنياً معروفاً ، فضلاً عن كونهما شرقيين غريبين في عالم الحديد والدولار والميزان ، يؤمنان برفعة الروح وحقارة المادة ويبشران بالمبادىء الانسانية المثلى . كانا يجتمعان من حين الى حين في شبه صالة ادبية تديرها احدى الاميركيات المتاجرات فيتشاوران هنالك ويتطارحان الخواطر ما طاب لهما الى ان سولت المصلحة ذات يوم لتلك السيدة أن تختلق اقاويل فارغة كان من شأنها ان فترت الصداقة بين الرجلين وقد كانا اذ ذاك محوري الحركة الادبية في المهجر فتباعدا على غير عداوة ظاهرة .

وتعاود الامين من جديد فكرة الرحلة الى بلاد العرب بعـــد ان تقلص ظل الاتراك وسهلت مواصلات التنقل ، لكنه اصبح اليوم غيره بالامس وقد بلغ الخمس والاربعين من سنيه وقيدته مسؤولية الزواج !! اترافقه برتا في رحلته تلك ام تهزأ بمشروعه وتنعته بالخبـــل ؟ سؤال طالما طرحه على نفسه ، فكان جوابها التردد الواجف ، فيرجع الى التأليف حائراً وقد اعد كتابين للطبع مسلك الرؤيا وانشودة

المتصوفين (١) سلسلة من المقالات والقصائد كتب بعضها في لبنان وبعضها في نيويورك نشرتها شركة جمس هويت سنة ١٩٢١ فوسعا نطاق شهرته في عالم الفكر والشعر .

ومسلك الرؤيا، فصول متفرقة عالج فيها امين احوال الهيئة الاجتماعية والروحية الحاضرة فعزا اسباب اضطرابها في الغرب الى التكالب في سبيل المادة ثم استطرد قائلاً « ان المواعظ الدينية المبتذلة والمذاهب الباطنية الغامضة واستحضار الارواح واسرار الحب باطلة كلها لن تصلح الحال ولا سبيل لذلك الا بالرؤيا حيث ترى النفس خلاصها في ما يعقل ولا يرى » نظرية غامضة حاول امين ان يعرضها فكان فيها شاعراً اكثر منه فيلسوفاً ، تكلم تارة عن الجوهر الالهي في الحياة ، وحث تارة على الكمالات الروحية ، وقال اخرى باقتران العقل بالروح . خواطر شعرية متفرقة لا تجمع بينها لحمة منطقية ما . ومهما يكن من امرفان لهذه الابحاث ميزات قيمة لا تنكر ، اخصها ذلك الطابع الشرقي الصرف يباوره تعلق لاهف بالحرية الروحية ؛ فيعزز الجاه الشعري ويوطد وقعه في النفوس « ان الذين يسلكون سبيل الروح سواء اكان ما يملكونه من حطام هذه الدنيا كثيراً ام قليلاً هم ابطال الانسانية وهم هم رسل التحرر وان لم يعتبرهم التاريخ بين اعاظم رجاله ... ان الحرية الروحية هي حجر الزاوية لجميع الحريات فابكتاتوس العبد كان حراً وكذلك سقراط في سجنه والمسيح على الصليب » وقد تطرق الريحاني ايضاً في هذا الكتاب الى الاقانيم الثلاثة المتحدة « الشعر والتصوير والموسيقى » ثم الى الوطنية والوطن وكيف يفهمها الشرقيون والغربيون فقال : « ان محبة الوطن الاولي موجودة في المرء لانه جزء حي من ذلك الوطن . انما الوطن كتلة كبيرة ثابتة والمواطن كتلة صغيرة متحركة ... الغربي يعتقد انه جزء من الوطن او الحكومة اما الشرقي او الهندي فيعتبر نفسه جزءاً من الكل » .

---

(1) The Path of Vision . A Chant of Mystics

اما انشودة المتصوفين ، فمجموعة قصائـــد مختلفة المواضيع ، جسمت شوق الشاعر الغريب الى بلاده وتوقه الى اللانهاية ، تجد في « التائه » زفرة خانقة بعثها حنين مبرح الى لبنان ، الى جمال الطبيعة وبساطة العيش ، وتسمع في « ليبانوس » لبنان يدعو الشاعر وعروس شعره اليه فيعلل الشاعر الواله حبيبته بالرجوع . وهنا نذكر شيئاً من قصيدته البداية والنهاية ، نموذجاً لديوانه هذا وقد تجلت في اكثره الروحانية الصافية :

« قضي الامر يا ملوك ،

فالدم دافق والسيف محطم وكذلك الصليب ،

لكنما ام الموتى الازلية تبتسم للمارة رغم حزنها القتال

انتم تنزلون في الاعماق ملوثين بالدماء ودخان الحروب وجيوشكم تتهشم واعلامكم تنطوي ،

اما هي ، فتهبط من عـــل متوشحة بغبار الكواكب وتبذل حياتها مرة ثانية لتغذي العالم » .

انها حالات امين النفسية المختلفة ، وحشته في الغربة ، نفوره من المادة ، انجذابه الى اللانهاية وحنينه الى مرابع الاهل تجلت ناصعة كلها خلال هذه القصائد التي قال ميخائيل نعيمه في معرض الكلام عليها : « ان الريحاني في انشودة المتصوفين شاعر ينطق بتموجات فكره ونبضات قلبه فحينما تسمع لقلبه نبضة تجد في شعره جمالا وتسمع له رنة وتأتي على آخر القصيدة شاعراً انك قد اقتربت خطوة من الشاعر ولمست جانباً من كيانه . لقد شعرت عند مطالعة مجموعة الريحاني بحرقة والم . هو ذا اديب من ادبائنا القليلين وقـــد اصبح اليوم وكأنه ليس منا فهو يكتب لسوانا وليس لنا وبلغة غريبة عنا والاهم من ذلك ان ما يكتبه بالانكليزية اجمل وافصح وابلغ من كل ما كتبه بالعربية فكأننا لم نحصل من مواهبه الاعـــلى القشور اما الجوهر فيحصل عليه سوانا » .

لقد ظهر جلياً في هذين الكتابين تأثير الحكمة البوذية والافلاطونية المستحدثة .

انها نفحة شرقية روحانية هبت الى الغرب بعيد الحرب الكونية الاولى فكان لها تيارات قوية في الادب العالمي تبعاً لناموس رد الفعل غذاها تصوف طاغور وباغي وما اليهما من كتاب ومفكرين تقززت نفوسهم امـــام وحشية الكائن البشري . فكان طبيعياً ان يتأثر امين بتيار كهذا فيمده بشيء من روحانيته الشعرية وهو الشرقي المثالي الذي عرفنا .

***

ان الشهرة العالمية التي طالما سما اليها الامين تمت له اليوم . صحف الاميركتين وانكلتره والشرق الاوسط تكتب عنه باعجاب ومجالس الادب تحتفل بتكريمه ، فيصدف عنها غير آبه يروم تحقيق حلم تمكن منه ، تحقيق رحلته الى البـــادية . عرض القضية على زوجه فاستهجنت بادىء الامر وخالته يهذي ولا غرو فقد قرأا معاً ما عـــانى الاديب الاسكتلندي تشارلس دوطي اثناء رحلته من مشقات ركوب الابل والحمير وما قاساه من ضروب الاضطهاد والتعذيب في عنيزة والنفود كادت تودي بحياته ، فكان كلما حاول اقناعها بكرم العرب ورحابة صدرهم ساورها النفور الحانق واشتدت بممانعتها . اما رفاقه هنالك فاستنكروا مشروعه الاستنكار كله وهزؤا به جميعهم ، فلم يكن منه الا ان ازداد تصلباً برأيه وثقة بارادته واستمر يطالع نهماً كل ما اتصل به عن العرب واخبارهم من قلب البلاد العربية وشرقها لوليم بلغراف الى سياحة في بلاد العرب لجان بركهارت الى الحج الى المدينة ومكة لرتشارد برتن الى التجوال في البلاد العربية لتشارلس دوطي والى غير ما هنالك من صحف ومجلات تناولت شؤون الجزيرة واحوالها لا يصده اي عامل عن رغبته. واتفق ان قرأ يومذاك في مجلة مركيس ان رفيق جهـــاده قسطنطين يني « الذي ابعدته عنه الحرب العظمى وحرمته اخباره » هو في خدمة الملك حسين عاهـــل الحجاز فسره الخبر وسرى عنه بعض الهواجس فكتب اليه تواً يسأله اذا كان يأذن

جلالة الحسين بالزيارة وهل يرافقه هو برحلته وعن غـــير ذلك من امور يتوقف عليها سفره .

ولا يفتأ امين يرغب برتا بمرافقته الى بلاد العرب ليأتيا منها الى لبنان «مورد الشعر» وهي الى ذلك مسترسلة في عنادها تأبى ان تترك نيويورك موطن شهرتها ومتذوقي فنها لتعيش كعامة القرويات في جبال لم تخلق لامثالها العصريات. ويرده اخيراً جواب قسطنطين يقول : « اتفق ان وصل كتابك الى جلالة الملك حسين في جده فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع وهو يرحب بك اذا حضرت اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز . . . والسياحة توافق ان تكون في فصل الشتاء . . وانى بكل سرور ارافقك حيث شئت اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها للاسباب المعروفة والسياحة تكلفك لااقل من خمسمئة جنيه » فيلمع الامل من جديد في فضاء احلامه يقضي نهائياً على حيرته فيعد عدته للرحيل قبل حلول الشتاء . . .

اما برتا وقد اخفقت لديها لغة المنطق وبعدها لغة الشعور لم تجد بدآً من ان ترافق زوجها الى جزر البالبار حيث تزور صديقاتها وتحاول اللحاق به الى البصرة عن طريق الهند، وهنا تنتهي المرحلة الثانية من حياة اديبنا ،مرحلة انتاج وجهاد والم وتطور مستمر رأيناه في اولها دائباً عـلى بلوغ الشهرة الصاخبة ليملأ فراغاً نفسياً لديه ولده مركب النقص ، يكتب ويعمل ويخطب تحت ايحاء الزهو الباطل ورأيناه متقلباً في مبادئه الفكرية متأرجحاً يعتنق اليوم مبدأ جفاه بالامس ليعود فينقضه غداً ويتبع سواه ومضطرباً متلوناً يتلقى تأثير بيئته دون مقاومة. انه التلميذ السطحي المنتفخ بخال نفسه خازن المعرفة يجرب كل حقول الفكر ويكتفي منها بالقشور. أثرت عليه ذلك العهد بنوع خاص المجاري الفلسفية السائدة في اميركة والعالم ولا سيا العلومية والايجابية ، والتطورية فحاول ان يهضمها وينسق بينها وبين ما اخذه عن روسو وسبينوزا فهضمته وسيطرت عليه حينا وبلبلت عقله ،ولم يتخلص منها الا تحت تأثير بعض اخوانه الادباء في نادي الثريا الذين جعلوه يحس قصوره الفـاضح

ويعمل على استكمال شخصيته . فحدث انقلاب عميق لديه كان منه ان صرفه عن البهرج الاجوف ووجهه شطر المثالية العليا في الحق والخير والجمـــال . وفي تلك الحقبة الانتقـــالية تعرف الى افلوطين ومتصوفي العرب وطاغور فعززوا ايمانه بالروحانية المثلى واثروا نهائياً على توجيه العقلي فكان الشاعر الروحاني الذي عرفناه في جادة الرؤيا وانشودة المتصوفين وكان رمز والاشعاع اللبناني عبر البحار والرسول المجاهـد في خدمة الانسانية عامة والعرب خاصة لا يتوخى الا الخير المجرد المطلق .

* * *

العهد الثالث

رسول لبنان الى العرب

ان جنونًا في سبيل الحق والحرية خير
من الرصانة مع العبودية

– الريحاني –

«ومن الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك تزعجه وان شاخت فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها ويحقق مسعاه» (١) انها احلام الصبا المضطربة التي طالما خالجت ذهن الامين تتجسد اليوم قوة دافعة تحدوه على ترك زوجه ونيويورك واسباب الرفاهة فيها ليجازف بنفسه ويركب المشقات مختاراً في سبيل انهاض العرب وتوحيد صفوفهم .

(١) مقدمة ملوك العرب

ودع الامين وزوجه اميركة ومن فيها وركبا البحر معاً الى جزر الباليار حيث بقيت برتا عند رفيقة لها وتابع المغامر طريقه الى مصر وقد ابرق الى اصدقائه فيها لا سيما اليـــاس زياده وابنته مي ينبئهم بوصوله القريب ... وتعود الذكرى بالريحاني الى عشر سنين خلت ويلقي الماضي وقره على منكبيه فيخشى العواقب ويضطرب ... اما كتبت اليه بالامس مي تعاتب شاكية غاضبة ؟؟ فما يكون موقفه حيالها في مصر وقد طالت دورة الزمان مبرد الشعور وطوت عهد العزوبة وآمالها ...

بلغ الريحاني وادي النيل في ٢٧ يناير سنة ١٩٢٢ وقد ارخى شاربيه ولبس الطربوش المصري، فالتف حوله رجالات الادب والسياسة يرحبون بقدومه ونظموا لتكريمه سلسلة من حفلات الشاي اشترك في اكثرها من الشعراء والادباء احمد شوقي، خليل مطران ، احمد تيمور ، مي زياده ، نعوم شقير ، محمد لطفي جمعه ، اسعد خليل داغر ، انطون الجميّل ، عبد الحليم المصري ،داود بركات، امين زيدان وعدد غفير من رجال الدولة والوجاهة ، القيت في اثنائها خطب وقصائد شتى (١) جمعت الى الترحيب بالزائر الكريم اقراراً بفضله على الادب العربي وتقديراً لميزاته . وفي تلك المناسبة اتيح للامين ان يدرس احوال مصر عن كثب في جميع نواحيهـــا الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية ، فلمس تقدماً حثيثاً عما كانت عليه قبل سفره . المرأة ترفع صوتها مطالبة بالتحرر من التقليد الجائر ، والبعثات العلمية تتكاثر الى اوروبة والصحافة تنمو وتزدهر وفكرة الاستقلال تتبلور، بوادر مشجعة كلها على التفاؤل بمستقبل هذا الشرق شددت عزيمة المجـــاهد وغذت ايمانه بالاصلاح السريع .

---

(١) تعاقبت حفلات التكريم في دور يعقوب صروف ، سليم سركيس ، بلسم عبد الملك ، مي زياده، الجامعة الاميركية، الامراء لطف الله، احمد زكي باشا ، «في سفح الاهرام» الشيخ مصطفى عبد الرازق ، اميل زيدان، نجيب صروف ، الدكتور شحاشيري ، الاتحاد السوري وقد جمع الرافعي ما قيل فيها في كتابه امين الريحاني في مصر .

ويجتمع امين بمي في دارها فتبعث الصداقة قوية بين من جمعتهما بالامس واليوم وحدة النفسية والاهداف ،اديب واديبة شرقيان تلقحا بالثقافة الغربية، نشرا حرية الغرب وكرزا بالروحانية المثلى، يلتقيان من جديد . فكان عتاب وتكاشف ودي بينهما وكان تجديد عهد الولاء قبل ان يفترقا الى ما شاء الله .

ثم غادر المجاهد القاهرة في ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٢ الى السويس ليبحر منها الى جدة حافظاً لمصر واهلها ، في صميمه ، اعمق الآثار .

ويركب الامين متن احلامه من جديد ، يحققها بحزم وعزيمة ، يحمل الى اخوانه العرب رسالة لبنان التقدمية الحرة هازئاً بما تخبىء له الاقدار ...



وصل الريحاني الى جدة ، في ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٢ ، فتلفن منها الى الملك حسين ينبئه بقدومه ثم بادر تواً الى صديقيه فؤاد باشا الخطيب وقسطنطين يني يستعلم عن مصيرهما ويطلعهما على قصده بتفصيل فتحمسا لقضيته ، قضية العرب كافة ، وعاهداه على المساعدة جهد المستطاع .

ولما بلغ جلالة السلطان خبر قدوم الامين جاء بنفسه يستقبله مرحباً يقول : « وهلا نقطع فرسخاً لنلاقي من قطع البحار وتجشم الاخطار في زيارتنا» (١) فكان تعارف صريح بين المليك والرحالة مكنت صلاته المواجهات والاحاديث المتعاقبة في مناسبات واماكن عدة في ارض الحجاز . وقد تناولت هذه المباحثات على الاغلب غايات الامين من رحلته واحوال السياسة العالمية وتطوراتها الممكنة فضلاً عن مطامع انكلترة والولايات المتحدة في الجزيرة العربية .

(١) ملوك العرب

وبعد ان ساح امين ورفيقاه اسبوعا كاملاً في ارض الحجاز يحف بهم كرم المولى الهاشمي ، وافاه احد العبيد يحمل اليه كسوة عربية وخنجراً مكياً وقطعة مزركشة بالذهب من ستار الكعبة ، هدية السلطان «فلبست القميص البدوية ذات الاردان ثم العباءة ، ثم عقال الذهب وتمنطقت بالخنجر ورحت تواً اشكر صاحب الجلالة . فلما رآني في هذه الصورة بسط ذراعيه هاتفاً : يا حبيبي يا عيني ! وضمني الى صدره وقبلني فاحسست من شدة التأثر بشيء غشي عيني فبادرت الى مكان المنديل من ثوبي الجديد فما وجدت حتى الجيبة فيه ، فمسحت الدمع بردني فضحك جلالته وقال حقاً انك بدوي الآن »

آنس الحسين لدى الامين اخلاصاً للعرب واندفاعاً في خدمتهم عز نظيرهما فانفتح له مطمئناً وعرض عليه مشاكل بلاده ، يشاوره في حلها ، فكان هذا يبدي آراءه بدرايته المعهودة وكثيراً ما خالطتها الصراحة الخشنة التي لا تعرف مجاملات القصور . وبين الاقتراحات المختلفة التي عرضها الريحاني على الحسين بشأن توطيد السلام بين اسياد العرب وتعاونهم في سبيل العمران ، عقد معاهدة ثنائية مع الامام يحي توطئة لمعاهدة اوسع نطاقاً تشمل كافة اسياد الجزيرة ، فرضي السلطان مشترطاً ان يعترف به الامام ملكاً على العرب ولما اتم امين مهمته لدى الحسين فكر بالرحيل ولكنه لم يشأه دون ان يزور مكة المكرمة ، فعمد عبثاً الى كل سبيل معقول ليستحصل على اذن بدخولها ، حتى اذا اعياه الامر ودع جلالة الهاشمي وادار وجهه شطر اليمن وقد اوسل يستأذن الامام بدخولها « جئت الى جده واجتمعت فيها بصديقي القديم قسطنطين يني وخطر لي ان لا بد في السفر الى جبال اليمن من رفيق فسألت جلالة الملك حسين ان يأذن لقسطنطين ان يرافقني فاجاب سؤلي ، فسافرنا انا في ثياب افرنجية وعقال احمل جوازاً اميركياً وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي فاطلع على جوازينا واحتفظ بها ثم اخذ عنواننا » وفي عدن قابلا بشأن السفر الجنرال سكوت وكيل بريطانيا العظمى والحاكم المدني والعسكري

هنالك فنصحها بقوله « ان السفر الى صنعاء محفوف بالاخطار خصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين فاذا اذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤلين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود» ولكن اميناً وقسطنطين وقد الفا التعرض للاخطار لم يترددا ساعة في زيارة اليمن بل لبثا ينتظران على جمار ورود جواب الامام حتى اذا ابطأ وطال ابطاؤه توجها الى لحج يزوران سلطانها عبد الكريم فضل ويطلعان على اوضاعها وشؤونها وهنالك بلغتهما برقية الامام يستجيب طلبهما مرحباً فاعدا عدة السفر « وقبل انبلاج الفجر ركبنا سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالا وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون الهجن وعند الغروب وصلنا الى قصر السلطان علي بن مانع في المسيمير سلطان الحواشب» فواجهاه حيناً ثم خرجا يقصدان صنعاء ، يتوقفان في كل بلد يبلغاه ، يتفقدان احواله ويدرسان خصائصه ليدونا مذكراتهما حولها في المساء .

رحالتان واعيان جريئان يتجشمان اخطر المصاعب بابتسام لبلوغ غاية انسانية مثلى في خدمة العرب .

٣

بلغ امين وقسطنطين صنعاء ، عاصمة اليمن ، في ١٨ ابريل سنة ١٩٢٢ بعد مسيرة اسبوعين كاملين مغمورة بالمشقات ، فاستقبلهما فيها الامام يحي بحفاوة بالغة ومن ثم اخذ يستفهم بلباقة عن الغاية البعيدة التي يرميان اليها والحذر الشديد يستبطن كلامه حتى اذا اطمأن الى حسن نية محدثيه ورغبتهما الاكيدة في خدمة

العرب عموماً وتوحيد كلمتهم ، اخذ ينفتح اليهما مختاراً ويطلعها تدريجاً على تصاميمه السياسية وعلى اوضاع بلاده فطالت المقابلات بينهم وتنوعت الاحاديث وقد تناولت عدا اهداف الريحاني في رحلته توجيه السياسة الاوروبية والاميركية الحالي في الشرق الاوسط واحلام الولايات المتحدة الاقتصادية وتطور العلاقات الدولية عامة. فكان امين ينتهز كل سانحة في حديثه ليبين الى سموه فائدة التفاهم مع الانكليز على صعيد المساواة وفعالية التعاهد مع ملك الحجاز وابن السعود من حيث الاستقرار السياسي «اني اشتهي ان تكون البلاد العربية مستقلة استقلالا سياسياً تاماً ولكني اغار عليها من دسائس السياسة الاجنبية . انما السبيل القويم هو في اتحاد ملوك العرب وامرائها اتحاداً لا يقدح بسيادة كل منهم ولا يجحف باستقلالهم المركزي التاريخي»(١) كما حاول اقناعه بان يفتح بلاده للتجارة الاجنبية وينشر فيها الثقافة والعلوم والصناعة الحديثة ، فابدى الامام تمسكاً شديداً في البدء باستمرار الحال لكنه اخذ بعدئذ يتساهل قليلاً في وجهة نظره عقيب محاولات طويلة قام بها الامين ، ورضي ان يعقد معاهدة ولائية مع الحجاز كتبها امين بنفسه وارسل نسخة منها الى جلالة الحسين مع رفيقه قسطنطين. ومكث الريحاني وحده في بلاد اليمن يطلع على طبيعتها ومواردها وعادات اهلها ومستوى رقيهم الاجتماعي وتأثير الامام وحكمه وعلى غير ماهنالك من دلائل مميزة خاصة ليكتب عنها في مذكراته ، فكان يستقيها من الامام مرة ومن الشعب مرات « من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والدرس والاكتشاف ، كنا في طريقنا من لحج الى صنعاء سؤالا مجسما سؤالا حيا متحركاً اذا اذن لنا بالاستعارة وحسبنا في بعض الاماكن ان نقف ساكتين صابرين فيجيئنا صاحب الامام مادحاً ويجيئنا عدو الامام قادحاً فضلاً عن الفلاحين والجنود وقد عضهم البؤس والفقر فيجيئونا شاكين ومتبرعين همساً بما نبغيه من المعلومات ، فوصلنا الى صنعاء وعندنا خيرات من اخبار اليمن والزيود» (١)

---

(١) ملوك العرب

طالت اقامة الامين في اليمن وبلغ احتفاء الامام به ، ولا غرو فقد قدر كل منهما مواهب الآخر حق قدرها ، فكان الاعجاب متبادلا والاتصال وثيقـاً ، فلما خطر للاديب الرحيل لم يشأه وليس لديه شيء عن ملامح الامام الذي احبه واجله ، غير الذكرى والخيال ، لانه لم يكن يسمح بتصويره ، « فاستعنت بالقليل مما عندي من فن التصوير واغتنمت الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكان هو يشتغل فدرست وجهه ورسمت عندما عدت الى المنزل ما حفظت منه فكان الرسم الذي تراه صادقـاً بشهادة من عرف الامام » (١)

وودع الامين الامام وصنعاء مزوداً باوفر الوثائق يقصد الحديده فبلغها بعد لأي وزار السيد الادريسي حاكمها الرشيد وبحث معه في وضع تصميم معاهدة رباعية تعقد بينه وبين الامام والحسين وابن السعود توطيداً للسلام وتثبيتاً لدعائم ملكهم فتردد هذا حيناً ثم حقق رغبة الامين وقد احس اخلاصه المجرد واندفـاعه المثالي في سبيل خدمة العرب ،ولم يمكث الريحاني هنالك طويلاً رغم الحاح السيد بل توجه الى الخج وكتب منها الى السلطان عبد العزيز يستأذنه بزيارة بلاده مخبراً اياه بغايات جولته وامانيه ، ولما طال انتظاره الجواب وعيل صبره ، قرر زيارة العراق فتوجه الى عدن يقيم فيها «تحت سرادق القيظ في فم البركان بين اشباح الجدري والحمى ستة اسابيع ينتظر اذناً بالسفر الى العراق » (١) حتى اذا ورده الترخيص انتقل من عدن الى بمباي يقصد البصره فقضي في تلك المدينة اسبوعاً كاملاً قلق البـال حائراً وقد احس شبح الخيبة الرهيب يتجسم امام عينيه ويكاد يحجب دونها الرجاء . الانكليز والتعصب والمناخ السيء والامراض الفاشية تواطأت كلها على عرقلة مساعيه .ولكن اميناً الذي لم يعرف للوهن معنى لم يتراجع امام هذه المصاعب المستمرة بل كان له الكلمة الاخيرة عليها وواصل سبيله بابتسام ...

* * *

(١) ملوك العرب

سافر امين من بمباي الى العراق ومكث فيه نحواً من شهر قاسى خلاله الحمى ثلاث مرات . فلما وافاه جواب السلطان السعودي يرحب بقدومه ركب الباخرة الى البحرين وقد علم ان السلطان هنالك وارسل اليه رقيمة يبلغه وصوله ويسأله هل يوافيه حيث هو ام ينتظره في العقير الى ان يعود فاجاب السلطان ان لارأي له البتة بهذا الشأن، فقصد الامين النفود والتقى فيها السلطان عبدالعزيز واعتذر اليه عن ابطائه فرد جلالة السعودي مبتسماً يقول : « اما نحن فما ترددنا ولا ابطأنا في الجواب وكيف نرد من يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب . قالوا لنا انك امير كي جئت تبشر بالدين المسيحي في البلاد العربية وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت بغي الامتيازات وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف وقالوا غير ذلك فقلنا اذا كان في الرجل مايضر فنحن نعرف كيف نتقيه واذا كان فيه ماينفع فنعرف ايضاً كيف ننتفع ونحن نعلم ياحضرة الاستاذ بهمتك بارك الله فيك .

فاستأذنته اذذاك ان اخبره بالمقاصد الثلاثة في رحلتي فقلت : وقد تم الاول بمشاهدتكم وسيتم الثاني بما ساكتب ان شاء الله فيما شاهدت اما الثالث فلا يتم الا بمساعدة ابن سعود واني متيقن يا مولاي ان الوحدة العربية لا تتحقق الا باجتماع امراء العرب كلهم بالتعاون اولا والتفاهم فهم اليوم في معزل بعضهم عن بعض اذا لم نقل في احتراب دائم »

ودار الحديث الطويل بين ابن السعود وامين عن الرئيس ولسون واميركا اولا ثم انتقلا الى القضية العربية واتحاد اسيادها الوثيق فادهش الاديب ببلاغة السلطان وحدة ذكائه وصوره باعجاب بالغ قال : « السلطان عبد العزيز طويل القامة مفتول الساعد شديد العصب متناسق الاعضاء وهوا اسمر اللون اسود الشعر ذو لحية خفيفة مستديرة وشارب يقصه على الطريقة الوهابية . له من السنين سبع واربعون يلبس

في الصيف اثواباً من الكتان بيضاء وفي ايام الشتاء قنابيز من الجوخ تحت عباءة بنية . وهو ينتعل ويتطيب ويحمل عصاً من الشوحط طويلة يستعين بها على الافصاح عن آرائه على تشكيل كلماته اذا صحت الاستعارة وتمكينها . ان له في الحديث غيرها من الاعوان ، له انامل طويلة لدنة يشير بهـــا في مواقف البلاغة وله عينان عسليتان تنيران اماكن العطف واللطف ساعة الرضى وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى وفي الحالة الثانية كالحديد يتقلص فيشتد فهو اذ ذاك كالنصل حداً ومضاء.

« اجل ان ابن السعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير فيذهب العطف من ناظريه ولون الورد من شفتيه ثم في افترار يستحيل النور ناراً بيضاء فهو اذ ذاك رهيب » (١) .

ويقيم الريحاني في نجد ستة اسابيع « كان يزوره السلطان في منزله كل ليلة فيباحثه في مواضيع شتى نجدية وعربية وعامة وهو دائماً في حديثه فصيح صريح ». بيد انه لم يكتف بالاتصال بسلطان نجد وحده بل اتصل بذوي الشأن كلهم وبمختلف طبقات الرعية يطلع على احوالها الاقتصادية ومستواها الاجتماعي ونزعاتها السياسية فادهشه اجماعها المطلق عـــلى الوفاء الواعي لابن السعود والثقة التامة بعدله ونبله مكن فيه رأيه بالمجاهد العربي الاكبر وسمو قصده . ولمـا انهى الريحاني جولته في صميم نجد واهلها والتقط المعلومات التي اراد ودع جلالة السلطان السعودي آسفاً يحمل منه اجمل الذكريات وقد ايقن من نجاح سعيه « خرجنا من الرياض اثني عشر راكباً وفينا الرفيق والحارس والخادم والطاهي والقهوجي وراعي الاباعر قاصدين الكويت » فلما بلغوها خرج يستقبلهم حاكمها سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح مع حاشيته وبعض اسرته فمكث امين في ضيافته مدة يباحثه في القضايا العربية العامة والخاصة ويتفقد اوضاع البلاد في مختلف نواحيها وعلاقاتها مع العراق ونجد ويدرس عقلية الشعب ورغائبه ، وقـــد استوقفت انظاره بنوع خاص تجارة اللؤلؤ هنالك

(١) ملوك العرب

وصناعة السفن فضلاً عن الموقف السياسي واهمية النفوذ البريطاني في ادارة المشيخة.
وفي الكويت اجتمع امين صدفة بالشيخ خزعل امير نوبان وسردار عربستان وقد كان ينوي ان يعرج الى المحمرة ، في طريقه الى البصرة ، ليقابل سموه فدار الحوار بينهما طويلا حول مقاصد الريحاني ، فاعجب هذا بتساهله الصريح في الدين والاجتماع وتوطدت صلات التعارف بينهما ، وغادر امين الكويت يقصد البحرين حيث اتصل بشيخها احمد بن عيسى وحل عليه ضيفاً . وبعد ان اطلعه على مهمته وما وصلت اليه مساعيه ، سأله عما اذا كان يلبي دعوة الحسين الى اجتماع يعقد في مكة لبحث شؤون العرب فاجاب « اذا لبى سلطان نجد الدعوة فاننـــا نلبيها » واغتنم الامين فرصة وجوده في البحرين ليستقصي عن حقيقة اللؤلؤ ، اهم مصادر الثروة المحلية ، فتبين له ان مغاص البحرين هو الاول من نوعه في العالم . ولما اتم جولته ، توجه الى عدن ليبحر منها الى العراق « ابحرت من عدن اقصد الى العراق فلما وصلت الى بمباي التي لا بد من التعريج عليها اذا كان السفر في احدى بواخر الهند لقيت في قنصلية اميركة كتاباً من الديوان الملكي في بغداد» وجهه اليه امين سر الملك فيصل باسم صاحب الجلالة يرحب بزيارته ، فسافر الى بلاد الرافدين للمرة الثانية بعد ان انجز رحلته في الجزيرة وأدى رسالته الاصلاحية على اكمل وجه .

٤

ابحر الامين من بمباي الى البصرة على باخرة انكليزية من بواخر الخليج ، هائمـــاً شارد اللب لا يعلم هل وافته اليها زوجه كما وعدت ام اخلفت بقولها . . . وكيف لا يساوره القلق بشأنها وقد انقطعت عنه اخبارها منذ نيف وسنة ولم يعلم لذلك سبباً غير صعوبة المواصلات البريدية . ولما بلغ البصرة قصد لمحل الوكالة البريطانية

يستعلم عن برنا فلم يعرف عنها شيئاً مطلقاً رغم المحاولات والتعب ، فاستولى عليه الحنق الشديد واستدعى حوذياً « ساق جواده الاعرج بجر عربة مكسرة فيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني » حتى اذا بلغ محطة السكة الحديدية استقل قطاراً الى بغداد حيث توجه الى صديقه امين كسباني ليذهبا معاً الى زيارة عاهل العراق وقد اخفى كل ما كان يؤرجحه من الاضطراب الباطني ، فاكرم السيد الهاشمي وفادتهما وانزلهما في ضيافته . ولما استقر بهما المقام اخذ امين يسأل صاحب الجلالة بتفصيل عن تصاميمه السياسية المقبـلة وعن علاقاته باخوانه ملوك العرب والدول الاجنبية وكثرت بعد ذلك زيارات الامين لفيصل ودارت اثنائها مباحثات ضافية حول توثيق التعاون بين الاقطار العربية كما تعددت اتصالاته بالوزراء والاعيان ورجال القلم ولاسيما الرصافي والزهاوي يدرسون معاً احوال الاقتصاد والسياسة والمجتمع والثقافة في تلك البلاد. وقد اقيمت في بغداد سلسلة من حفلات الشاي التكريمية على شرف الامين، نظمت اولاها في دار المعلمين حضرها ممثلو الحكومة واعيان البلاد وادباؤها تكلم فيها الرحالة عن التربية الواعية وفوائدها فتناول اسبابها ثم نتائجها (الاستقلال الفكري ، الاعتماد عـلى النفس ، حب العدل والانصاف ، تمرين الارادة ، صدق القول والعمل) وتلتها حفلة الحزب العراقي الحر التي تكلم فيها معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي شعراً يرحبان بوصول الغرب الى الشرق والشرق الى الغرب ثم تعاقبت الحفلات الخطابية في المعهد العلمي ، مكتبة السلام ومنتدى التهذيب حتى اذا هم الامين على ترك البلاد العربية نهائيـاً القى قصيدته النثرية الاخيرة في المعهد العلمي ببغداد يخاطب تلك الاقطار قاطبة باسم الحرية يقول : « هي الحرية جاءت تزور البلاد العربية وتزرع فيها بذورها الطيبة الصفية ، ابتسمت في الحجاز ابتسامة المريض وبكت في تهامة بكاء اليائس وضحكت ثم تأوهت في اليمن وجلست تستريح في العراق . هي الحرية تخاطبك ايتها البلاد العربية . هي الحرية تخاطبكم

(١) جمع هذه الخطب رفائيل بطي في كتابه ـ امين الريحـاني في العراق ـ وذكر تفاصيل الحفلات والتعاليق عليها .

يا اسيادي اصحاب العظمة والجلالة . ايها الملوك والائمة والامراء والسلاطين ان في كلمة واحدة اليوم حياة هذه الامة والكلمة لكم فهل انتم بها ناطقون . الكلمة (الاتحاد) فهل انتم في امر واحد متحدون ؟ والامر الاول الجوهري (الصلح) فهل انتم بالصلح راغبون واصلح اساس الوحدة العربية ، فهل انتم في سبيل الوحدة مجاهدون ؟ والوحدة العربية اساس الحرية القومية فهل من حرمة تعززون. وحرمة الامة لا تعزز بغير العلم الصحيح . فهل من معاهد للعلم تشيدون ؟ . اذا كنتم تفعلون فاني الحرية اقيم بينكم وابشركم بمستقبل مجيد والا فساعود الى اقصى البلاد والبس على بلادكم العزيزة الحداد ».

وقبل ان يغادر العراق ، زار كربلاء والنجف ثم عاد الى الفريكة بعد اربعة عشر شهر قضاها في الجزيرة قرير العين راضياً عن عمله، ناقماً على زوجه ، وقد نسي المشقات والعراقيل التي اعترضت سبيله .

***

« زار كثيرون من الاوروبيين ، سياسيون وجنود وعلماء بلاد العرب . طاف بركهاردت وبورتون اطراف الحجاز ودوتي انحاء الجزيرة الوسطى والغربية كما اجتاز فلبي الصحراء من خليج العجم الى البحر الاحمر، انما قل بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المؤاتية للتعرف الصحيح بتلك البلاد واحوالها كتلك التي اتيحت للسيد الريحاني » (١) .

«لقد اختلفت غاية الامين كثيراً عن غاية الاعلام الذين تقدموه في هذه السياحة. فبلاد العرب لم تكن في عرفه نجداً مرتفعاً يجب استكشافه وملوكها تحفاً حية مختبئة وراء حواجز يتخطاها المغامرون ثم يعودون مباهين بما عرفوا من مجاهلها بل كانت بلاد بشر احياء يتكلمون اللغة التي تكلمها في صغره ، بلاداً لم يكن يجهل تقاليدها ،

(١) عن مجلة اسيا الاميركية المصورة .

بلاداً اراد ان تغذي مواردها الحيوية مدنية عربية قوية عوض ان تعزز المنازعات والدسائس بين العشائر لاستعلاء احداها على الاخرى الى ان يفني بعضها بعضاً»(١) .

نعم اراد الريحاني في رحلته هذه ان يجمع شمل العرب الشتيت بوحد كلمتهم ويعلي شأنهم بكل ما اوتي من كفاءة فراح يكرز بالحضارة بينهم والثقافة والسلام فكان خير رسول لنهضتهم الحديثة في جميع المناحي وافعل العاملين واخلصهم في سبيل توطيد التعاون بين مختلف اقطارهم .« اني رسول سلم لا رسول حرب وثورة في البلاد العربية جئتها مبشراً بالعلم والتمدن لابالوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز لا والله ما جئت لانصر جهــلاً مسلحاً واعزز تعصباً يفتخر بوحشيته . نبغي الحرية والاستقلال نعم ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللبس وفي البيوت وفي المدن (٢)».

ويوؤب رسول لبنان بلحيته وعباءته مطمئناً من اتمام مهمته الى واديه العزيز، يحمل اثمن التحف والهدايا والذكريات ليؤدي الى العــالم حساباً ضافياً عن رحلته العجيبة ، وقد ترك لدى اسياد الجزيرة وقبائلها خير ما يترك زائر كريم.

٥

وصل الامين سالماً معافى الى الفريكة ، الى حضن ام امين بعــد غيبة ناهزت السنين العشر، فنظمت في بيروت احتفــاء برجوعه حفلة خطابية على مسرح

(١) عن الثبات مككلم ، صوت عربي

(٢) ملوك العرب

الكورسال في ١٩ ايار سنة ١٩٢٣ (١) ختمها بقصيدته النثرية – العود الى الوادي – افرغ فيها فيض حنينه الى وادي الطفولة حيث يرقد الشطر الاكبر من ماضيه .

كان امين في الفريكة ينقطع عن هموم الدنيا ومشاغلها قاطبة ليعيش آمناً بين ذراعي الطبيعة ، ولكنه لم يستطع هذه المرة ان يفرض مشيئته على الوساوس وقد بلبلت رأسه ولا غرو فان بوتا صدمته في صميمه ، بوتا زوجه العزيزة وعروس آماله بالامس تنكث بعهدها ولا تلحق به الى البصرة كما وعدت . لقد حاول جهده ان يوجد لها مبرراً معقولا فلم يفلح أأقعدها المرض عن المجيء وبوسعها الاعتذار ام حلت بها كارثة ما والامر مستبعد غريب ... لا لا ، انه كبرياء المرأة الشماء يطعن في اعماقه لديها فيعلن الانتقام ، الم يؤثرهو رسالته على حبها فيما مضى فهجرها ولم يبال ؟ فلم لا تبادله بدورها المثل وقد طال الزمان والمسافة بينهما ... انها لا بد في اميركة منصرفة الى فنها لا تأبه لعقد الزواج ولا تحترم عهدها المقطوع !. فوجه اليها كتاباً قاسي اللهجة يعاتب فيه مرة ويؤنب مرة ويثور مرات . فلم يلبث ان ورده الجواب بعد حين وقد كان رد الفعل سامّاً بليغاً لدى الاميركية الجامحة ، فسددته الكيل اكيالا وكان جواب امر وجواب اشد مرارة وكانت القطيعة بينهما . عقليتان مختلفتان تتصادمان ، عقلية شرقي يأبى خروج المرأة عن سلطة الرجل وعقلية غربية تدين بالمساواة المطلقة ، فامين وان قضى زهرة العمر في اميركة واقتبس جل عوائدها بقي شرقياً محافظاً فيما عني المرأة يريد خضوعها لارادة الزوج ...

ويلجأ الامين الى عزلة مطلقة محاولا ان يتناسى ماضيه ، وقد اعرب عن ظمأه البالغ الى التنسك في كتاب وجهه اذ ذاك الى سليم سركيس قال فيه : ، جاءني زائراً هذه الساعة رئيس احدى الرهبنيات العام فاوقفني فوقفت عند باب الهيكل

(١) تكلم فيها داود نخول ، الدكتور حسن الاثير ، نجلا ابو اللمع ، فيلكس فارس ، ماري يني ، وديع عقل ومعروف الرصافي

تجملاً وقد علمني العرب اكرام الضيف وفي نيتي ان ادخل الدير بعد اسبوعين ترويضاً للروح والرهبان يسمونها رياضة روحية فاقيم هناك في عزلة الرهبان وفي ظل اعدائي الكهان واكون ولو اسبوعاً واحداً مسيحياً تقياً فاحب اعدائي وآكل معهم وانام تحت سقفهم واصلي صلاتي في كنيستهم».

وفي عزلته تلك كان امين يجمع المذكرات التي دونها في لياليه اثناء رحلته الاخيرة لا يتصل باخصائه الا في مناسبة ذات شأن. فلما زفت نجلا ابنة صديقه سليم سركيس الى الدكتور رائف نده لم يتردد في ان يكتب اليها من صومعته مهنئاً معتذراً عن ابطائه وقد استمد من ذكريات الامس موضوعه الشعري الانيق قال:

« جئت الآن وان كنت بطيئاً فالقلب سباق ، احمل اليك من ازهار الوادي ازكى التحيات ومعها كلمة من ناسك الوادي املتها الحياة نفسها وخطتها يد الحب والاخلاص.

« ذكرتك امس آنسة تزهين في ظلال القديم الجليل من الحياة تحت سماء مصر الباهرة وذكرتك قبلاً وانت تتفتقين وتركضين في ظلال الجديد العظيم تحت سماء نيويورك القاتمة واني لاتصور في نفسك محاسن البلدين ، ينعكس في عينيك نور هذه الشمس التي تطل علينا من وراء صنين وينتشر في ضفائرك وفي روحك شذا زنبق الوادي وطيب احراج لبنان »

كأنما الوادي ولبنان سيطرا على شعووه الباطني وحسه سيطرة جعلته يرى فيهما ينبوع الجمال الصرف.

* * *

تعود امين في صومعته ان ينهض عند بزوغ الفجر ، يستحم بالماء البارد ، يرتدي ثيابه كما لو نوى السفر ويجلس الى مكتبه حتى الساعة الثـــامنة ، ساعة يتناول ترويقته الخفيفة . ثم يعود اليه فيلازمه حتى الغداء عندما يتوسط ام امين وسعدى

يداعبهما ببشاشته المعهودة ويأكل ، اذا خلت القاعة من الضيوف . وبعد الغداء يتمدد حيناً على كرسي من القش عريض الجانبين فوق شرفة تطل على الوادي قبالة صنين . يأتيه الزائرون قبل الظهيرة فلا يقابلهم بل تدعوهم سعدى الى الانتظار ريثما ينتصف النهار فيتغدون معه ثم يتحدثون ما طاب لهم . وقد عرف الريحاني بحسن ضيافته ولباقة حديثه . فكان لا يجامل ولا يوارب ولا يتورع مرة عن ان يقول الحقيقة وان قارصة او يتهكم بالسخافات ويثور على الرياء . اما اذا خلا المنزل من الزائرين فيعود الى مكتبه بعد استراحة قصيرة يستأنف عمله الى الساعة الخامسة ، فيتناول الشاي عند ذاك على الطريقة الانكلوسكسونية ، ثم يدخن غليونه وينزل الى الاسطبل يحمل في جيبه قطعاً من السكر الى « نورا » (١) فيلقمها بيده ويمسح بمنديله دمعها ثم يستوي على صهوتها ويخرج الى التنزه في الغابات المجاورة .

وبعد العشاء كان يطالع ما ورده من رسائل الادباء والخلان الى ان يعييه الجهاد العقلي فيلعب مع ام امين وسعدى « بالباصرة » ويحدثهما عن مغامراته الجريئة الطريفة ...

حياة نظامية هادئة ساعدته كثيراً في تحقيق مشاريعه الكتابية ، فلم ينقض العام على عودته من الجزيرة حتى جاز شوطاً بعيداً في كتابه ملوك العرب ونقح بعض مقالات كتبها هنا وفي اميركة نشرها في جزئي الريحانيات الثالث والرابع فجاءت حلقات متشابكة في سلسلة الريحانيات الاولى تسجل مظاهر نشاطه في تلك الحقبة التي تلت ظهور الجزئين الاولين .

انه المعمم الواسع الاطلاع يواصل نشر ما راقه من افكار ومذاهب وازياء حسب عادته السابقة وقد جهل تطور البيئة في بلاده بعد الحرب وانفتاحها الى الادب الغربي في جميع الوانه .

(١) هدية السلطان عبد العزيز

٦

اشتمل جزءا الريحانيات الثالث والرابع على ابحاث مختلفة كسابقيهما ، مقالات تعميمية ، محاضرات ، مراث ، خواطر ، حكم وشعر منثور ، لا رابط معنوي بينها البتة . تقرأ فيها عن الجوامع مثلاً وما توحي بساطتها من الخشوع فاذا بك فجأة مع المؤلف في الاندلس او في « حقــول الفتوة » او في نيويورك « مسرح الاهواء واللذات والاطماع » او في مصر والعراق . منتخبات لم تتميز الا بقصائدها النثرية التي انتظم وقعها الموسيقي وقويت نفحتها الشعرية فجسمت على نوع ما رأي صاحبها في الكاتب اذ قال : « ان الكاتب ايضاً من كان حسن الذوق في الفنون الجميلة كلها في الغناء والموسيقى والشعر والنحت والتصوير فيستعمل الالفاظ كما يستعمل العواد الاوتار وينظم المعاني كما ينظم الرسام الالوان ويمزج ادبه وعلمه وخياله كما يخرج صانع العطور عطوره فتجيء فيها روح الفنون كلها اي التناسب والتوازن والتباين في التشابه خلا الابداع نظراً وفكراً واسلوباً وهـذا لعمري الجمال بعينه بل هذا شيء من الكمال في الآداب » فغلبت عليهـا الاناقـة الفنية وسلست عباراتهـا وانسجمت مبانيهـا مطاوعة قصده . اما نظراته الفلسفية الاجتماعية فقــد تحررت هنا من سيطرة التيارات الفكرية الفاضحة في ريحانياته الاولى وتجانست بعض الشيء . وهي ترمي في معظمها الى التوفيق بين محاسن مدنيتي الغرب والشرق في مدنية مثلى اسها الثقـافة الصحيحة «حبذا الشرقيون والغربيون لو اخذ بعضهم عن بعض ما هو جميل في اديانهم صحيح في آدابهم سام في فنونهم سليم في عاداتهم سديد في عقائدهم عادل في احكامهم وشرائعهم . . . ان الآداب والتهذيب والفنون هي القـوى الادبية الروحية التي

يتآلف بها العلم والذي يقرن فيها بين بديهيات الانبياء ومعقولات العلماء وتتزج فيها روح الحقيقة وروح الجمال فتنبثق منها اشعة السلم والحب والاخاء» . فالحدود الجغرافية والفواصل العرقية وما اليها يجب ان تتوارى امام رابطة التعاون الانساني ليسود الامن ويتعزز التفاهم « فما الناس الا امة واحـــدة تجمعهم جامعة الآداب والفنون ودين واحد شامل قوامه الابوية الآلهية والاخاء العام ».

بيد ان الاقبال على قراءة هذين الجزئين من الريحانيات كان عادياً جداً رغم تحسن ديباجتهما وخلو التراكيب من الرطانة الغريبة ، ذلك ان الريحاني تعود لعشر سنين خلت ان يكتب لشعب قصر اطلاعه عـلى اللغة العربية يقتبل كل ما يكتب له باعجاب وتهليل فتروج كتبه بسرعة . فلما تسربت الثقافة الغربية الى هـــذه البلاد واوقظت لدى الشبيبة روح النقد والغربلة تضاءلت سيطرة الامين وفقدت مقالاته التعميمية ما كان لهـا من قيمة بالامس فلم يبق من الريحانيات الا القصائد النثرية التي قوي ايحاؤها النغمي وسمت مغازيها .

فتؤلم الامين الخيبة المفاجئة وتصرفه الى العناية الجدية بمادة – ملوك العرب – وقد لمس حساً نقدياً رهيفاً لدى القراء لا يسعه الا ان يجاريه اذا شاء ان يحفظ مكانته في الادب العربي وحظوته لدى النشء المثقف .

***

واخيراً صدر ملوك العرب سنة ١٩٢٤ ، ذلك الكتاب الذي كلف الامين وضعه تجشم المصاعب التي ذكرت ، مجلدان ضخمان (١) تخللتهما الخوارط والرسوم اوضح المؤلف في مقدمتهما ما حداه على القيام برحلته والاهداف التي رام تحقيقها ثم تناول في اولهما الحجاز ومليكها حسين بن عـلي ، اليمن وامامها يحي بن حميد

(١) ٣٩٠ و ٤٦٦ صفحة من القطع الكبير

الدين ، عسير وسيدها الادريسي لحج وسلاطينها والنواحي التسع المحمية ، وفي الثاني ، نجد وسلطانها ابن السعود ، البحرين وشيوخها آل خليفة ، العراق وعاهله فيصل الاول فدرس احوال تلك البلاد وامكانياتها بتفصيل وامعان وصور ما شاهد فيها وما اثر فيه منها باسلوب رشيق مبتكر راوياً احاديثه مع الاسياد والعامة ببساطة بليغة وذوق رهيف .

ديبورتاج ، غزير المادة طريف النهج ، تجلت فيه بنوع خاص ، مقدرة الريحاني الفنية في سرد الرواية ، لا سيما دقة الملاحظة ، براعة الاستنتاج ولباقة التصوير . طريقته الكتابية جاحظية فكهة نابتة الصبغة المحلية متنوعة المواضيع ، فبينا تراه يصف قصر الامام اذا به ينتقل فوراً الى وصف القات وكيفية استعماله او يقص نادرة واقعية طريفة ... لقد اراد ان يكون شاملاً في دراساته هذه لا يبقي زيادة لمستزيد « في هـــذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهم العرب خصوصاً والاسلام عموماً والتي تهم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ، يجدها القارىء في مكانها من البحث . اما الذين لا تهمهم السياسة بقـــدر ما يهمهم العلم والادب واخبار الاسفار فقد خصصتهم بقسم مما كتبت وقد اتخـــذت في ذلك اسلوباً يقرب من القارىء ما شاهدت بعيني وسمعت باذني ولمست بيدي فيتمثله اذا تم القصد الفني حياً لديه » . اجل حاول الامين ان يشركنا برحلته الممتعة جهد المستطاع فطوع الكلام للمعنى في اختلاف حقوله حتى جعل من اخباره صوراً نابضة فارضة . فاذا سمعته مثلاً يصف الامام يحيى سيد اليمن الجليل خلت نفسك تدخن القـات مع سموه « دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون عالي الجبين مستدير الوجه قاتمه . له فم كفم الطفل صغير بارز الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين رواعة وله لحية سوداء قصيرة مستديرة تخللها خيوط من الشيب ويلبس قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن وتعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى

اذنه . دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجمية والى جنبيه الوسائد يتكىء عليها وامامه زجاجة من الماء ورزمة من القات وخادم ينتخب الطري من غصونها فيقدمها له » ولا اخال ان لوحة زيتية او رسماً فوتوغرافياً مهما بلغت دقته يظهر الامام بشكل اوضح من هذا واوفى واروع ، لقد ساهم امين الرسام والشاعر والخطيب والممثل والكاتب والسياسي والانساني في وضع هذا الكتاب فلم يكن مرة واحدة هو كله كما كان فيه . والريحاني هنا لم يقتصر على وصف ملوك العرب وحدهم كما يتبادر لاول وهلة ، بل تناول الشعب كافة على اختلاف طبقاته من قبائل رحل ومقيمة وامراء ورعاة وخدم وطهاة واعطى نماذج عدة عنهم مبيناً مقدار وعيهم لامور الحياة وحقائق الكون دارساً احوال معيشتهم نافذاً الى اعماق رغائبهم « كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الاذن دائماً لجميع الناس فاسمع الشريف والبدوي والجمال والجندي والتاجر والسياسي وادون احاديثهم » فاسمعه رعاك الله يروي ما اخبره به السيد محمد رفيقه الى حضرة الامام عن العقلية اليمنية وقربها من الطبيعة الاولية قال : « لا يزال اهل اليمن وعسير وحشيين لا يثق الواحد منهم باخيه ولا يركن اليه ، حياتهم خوف دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير وبادر الي بندقيته فوضعها بين جنبيه وضمها اليه ، هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن قد رأيت بعينك ، الناس كلهم مسلحون و كلهم يقاتلون ويقتلون لامر طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ماقيمة هذا واخذ بيده فنجان القهوة ، ولكنه لي هو حقي ، فاذا اخذته مني . اغتصبته وما سمعت احتجاجي اقاتلك استل عليك هذه الجنبية اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن اذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين الى المتقاتلين ، فتشب في القرية نار الحرب وعندما تنطفىء يتساءلون وما السبب في القتال بين فلان وفلان ، يقاتلون اولاً ثم يستعلمون هذه طريقتنا في اليمن . نحارب حتى اهلنا يحارب الاخ اخاه والابن اباه فاذا كانت هذه حالنا بعضنا مع البعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب » : الست ترى في ذلك الصراحة كل الصراحة في سبيل اظهار الحقيقة تؤيد قوله ما جاء في المقدمة

« فها انا اذن في هذا الكتاب ولا فخر ولا اعتذار ، اعرف اسيادي ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات وليتأكد اسيادي ملوك العرب ان ليس في الثناء في ما كتبت تزلف او مداهنة ولا في النقد تشيع او تحامل انا غايتي القصوى تمهيد السبيل الي التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين ولا علم ولا يقين الا في تبديد الاوهام وانارة الاذهان » .

كتاب ، قيم في غايته ، سائغ في صيغته لم يؤخذ عليه الا شيء من النقص في الصقل والانسجام في بعض ابوابه والانحراف عن الموضوع في الاستطرادات التاريخية وربما بررته سرعة الاخراج . وعلى الرغم من هذا ، حقق ملوك العرب امنية الامين فجاء كما شاءه واسطة التعارف الصحيح بين الاقطار العربية وبالتالي ممهداً لتقاربها وتعاونها وبياناً صريحاً للعالم اجمع عن حقيقة العرب وبلادهم ، ينبض حياة من حياة الامين وقد عاش كل ما عرض ووصف وقال ، فتوهم القارىء انه يرافق الرحالة كظله ويشاهد بنفسه الجزيرة (١) واهلها حادياً على ظهور العيس .

٧

انتشر ملوك العرب انتشاراً سريعاً في اقطار هذا الشرق فترجمت فصوله الى اشهر اللغات العالمية (٢) وتناولته اهم صحفها بالنقد والتعليق والتقريظ (٣) ولا

(١) كان الريحاني يعتبر العراق شطراً من جزيرة العرب

(٢) ترجم الى ١٦ لغة .

(٣) عرضت عليه مجلة آسيا الاميركية ٣٠٠ دولار مقابل كل فصل يترجمه لها من ملوك العرب .

غرو فالكتاب ، من اين اخذته ، فريد من نوعه في الادب العربي فضلاً عن انه امن حاجة ماسة من الوجهة السياسية ، عهد تاقت البلدان العربية الى التحرر الناجز والتعاون الاكيد . وكان – ملوك العرب – لم يستنفد مادة الريحاني في رحلته فانصرف يهيء سواه في العربية والانكليزية يودعه ما تبقى في صميمه عن العرب واحوالهم ، فقبع يعمل بجد وثبات في الصومعة ، مقره الاعز ...

وهنالك كان يشعر بملء ذاته وانطلاق مشيئته على اكمل وجه فيكيف وقته حسبما يروم هو لا كما تورمه مجاملات المجتمع وينفسح له مجال العمل رحيباً هادئاً . انه الاديب الواعي وقد اتم بناء شخصيته كما تخيلها في صباه واحس مدى امكانياته وعمق فعله يكتفي بثروته الباطنية ويستغني عن الغير . او لم يحقق في ذاته ذلك الفوق الانسان الذي اقتبس فكرة بعيدة عنه من نيتشه وكتب بشأنه في ريحانياته الاولى؛ انسان استثمر لديه كل المواهب في اقصى حدودها الممكنة ، فراح يعطي للعطاء المجرد حليا سمحاً نبيلاً !!

قبيل الصباح ، شتاء وصيفاً . الى مكتب ميزه الترتيب الانيق توسطته جمجمة ناطقة بحقارة الدنيا كان يجلس الامين المتزن ورأسه بين يديه يستدر افكاره في فضاء من السكون الموحي . يسمع جرس الكنيسة يدعو المؤمنين الى الصلاة فيهرول الى والدته النائمة في غرفة ملاصقة ، وقد اثقل العمر سمعها ، يلامس جبينها ويوقظها مبتسماً يقول : « قومي يا ام امين بدأ القداس » فتثب العجوز مذعورة تحمل سبحتها وتمد باعيها نحو السماء ضارعة تنادي باعلى صوتها « وفقك الله يا بني كل ساعة » ، وامين يراقبها مطرقاً ذاهلاً تحت تأثير السذاجة البريئة وقد اخفى دمعة ثائرة في طرف عينيه .

كثيراً ما دعي الريحاني، تلك السنة سنة ١٩٢٤ ، الى القاء المحاضرات والاحاديث عن رحلته الاخيرة في الوست هول وفي غيرهـا من معاهد بيروت وسائر المدن المجاورة فلبى مختاراً وتكلم باغتباط عن جولة عاش كل وقائعها وعن شعب احبه الحب كله وتفانى في سبيله . وتشاء الظروف السياسية ان تخرجه مدة عن عزلته

الحصبة في اواخر السنة اثر النزاع الذي استفحل امره بين الحجازيين والوهابيين، فيسافر الى جده يتوسط بين المتخاصمين حقناً للدماء ويفاوض العاهلين صديقيه بشأن الصلح، حتى اذا عاهداه على تحقيق مساعيه، رجع الى الفريكة في اوائل سنة ١٩٢٥ يتم تاريخ نجد الحديث الذي نشر بعض فصوله في مجـــلة – الكشاف – ويبدي خواطره وآرائه في الصحف وقد كان قطب الحركة الفكرية في الشرق الاوسط كما كانه جبران في اميركة، يتوافد اليه الادباء في اوقات استقباله ينفتحون اليه مطمئنين يستشيرونه في شتى امورهم ويعرضون عليه انتاجهم طالبين رأيه، فيعطيه صريحاً خشناً احياناً، مشجعاً ما كان حسناً منه شاجباً قبيحه. ولكم سئل آنذاك ان يقدم كتباً جديدة معدة للنشر فقبل مرة ورفض مرات بعد ان طالعها لا يراعي في ذلك الا قيمة المخطوط وحدها. وقلما ظهر وجيه او اديب او متأدب في هذه البلاد او في الاقطار الشقيقة لم يحج الى الفريكة يخطب ود الامين الناسك، وهو الى ذلك مثال الديمقراطي الكبير لا يتشامخ ولا ينتفخ بل يزداد اتضاعاً ووداعة وكفراً بذاته. او ليس من طبيعة الكبير وطبعه البـــذل المجرد والبساطة الجليلة ؟؟

ويجهز تاريخ نجد الحديث فيطبعه امين سنة ١٩٢٧ وقد تناول فيه احوال نجد في ماضيها وحاضرها وسيرة ابن السعود السلطان الامثل بتفصيل انيق «كنت استقي الاخبار من مصادرها العليا واسمع من ذوي العرفان ممن حدثتهم ما يثبت او يكمل الرواية السلطانية» وقد اشتمل هذا الكتاب على ثلاث نبذ تخللتها الخرائط والرسوم درست اولاها نواحي نجد واقسامها من وجهتي التاريخ والجغرافية والثانية تاريخ محمد بن عبد الوهاب والوهابية والثالثة تاريخ آل سعود منذ نشأتهم الى استيلاء محمد ابن الرشيد على نجد وختمت بسيرة عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها وفي المقدمة قارن امين بين ابن سعود ومعاوية والمأمون وصلاح الدين الايوبي، افذاذ الاسلام، وفضله عليهم جميعاً لانه تمكن دونهم ان يجمع شمل الجزيرة. وبديهي ان يعلي الريحاني شأن السلطان عبد العزيز وقد فرض عليه ابلغ الاعجاب، وهو الى ذلك لم يعط حكمه عليه مستهدياً بقال الغير ولا متأثراً بهدايا السعودي

الجزيلة (١) بل مقتنعاً بتجسيمه كل ميزات القائد العربي الامثل.

اما اسلوب الكتاب فاخباري مرن غزير الفكاهة يشوبه احياناً بعض الجفاف العلمي اقتضاه التوسع في حقيقة التاريخ، ووثائقه صحيحة على الاغلب يحتاج بعضها الى تنقيب وتعليل اعمق رغم انها استقيت من اصدق الموارد.

ويقوم الريحاني بسفرة في المدن المجاورة، يتنقل بين سوريا ولبنان وفلسطين يزور رفاقه فيها تقام على شرفه حفلات تكريم، تفرض عليه فرضاً، ويدعى الى الخطابة والحديث فيعالج امور كل بلد ببضعه الخاص، وقد طلبت اليه تلك السنة جمعية الشباب المسيحي بفلسطين ان يلقي محاضرة توجيهية فيها فلبى وتكلم عن النهضة واسبابها في ما فحواه : ان على المرء ان يثور على نفسه اولا فيصلحها ليحق له بعد ذلك ان يثور على الحكومة ، او لم يثر هو على نفسه اولا يروضها كما اراد ؟ ان قوة الاقتناع في كلامه لم تكن تتفجر من معان ، كثيراً ما رددها سواه، او من مبان لم تجيء آية في الرصف والتنميق، بل من حياة هي حياته حشرها في تعبيره فتفتق عجزاً عن ادائها بمثلها . ان كل لفظة قالها كان ينتزعها من صلب صميمه فتثمر عملاً اذا لافت تربة خصيبة .

ولم يكن هم الريحاني زارع الافكار في حقول شاسعة متنوعة الا ان يلقي بذوره الصالحة ويمشي . . .

***

كان للريحاني علاقات مودة راسخة بسوريا الشقيقة ، يهتم لحل مشاكلها ويعمل بحماس على انهاضها، يتكلم في دمشق كما يتكلم في بيروت، كأنه في كلا القطرين

(١) تكلم عن هذه الناحية صديق الامين الحميم حسين العويني في خطبة القاها في الحفلة التذكارية التي نظمت احياء للريحاني سنة ١٩٤٥ بمناسبة تعليق صورته في دار الكتب واطلاق اسمه على احد شوارع بيروت .

لديه ؛ والسوريون الى ذلك كانوا يقدرونه حق قدره ، لا سيما ابطال نهضتهم وادبائهم نخص بالذكر شكري بك القوتلي ، آل الخوري ومحمد كرد علي ، (١) وقد خبروا قوته ووفاءه فوثق الاتصال بينهم يغذوه التفاهم الروحي.

كان امين يتألم في قرارته عندما يلمس التأخر الفاضح في بلدان هذا الشرق ولا سيما في لبنان وسوريا فيعمل على بتره في كل مجال وبكل وسيلة وكان يعلم يقيناً ان داء الشرق الاول كامن في سلبية الشرقيين واستسلامهم للقضاء . انهم يتغنون بامجاد اسلافهم ويناموسن سكارى مترنحين بذكرها غافلين عن قضايا الحاضر وتعاقب حلقات الزمان ، فيثور التقدمي المتغرب المؤمن بسلطان ارادة لم يعها محض رجاء وتوقع بل عيشاً مستبقاً للوقائع وسعياً متزناً مستمراً ، وينادي بالعمل الايجابي وبالاتكال على النفس في احاديثه ومحاضراته . وقد وضع يومذاك كتيباً اسماه — النكبات — (٢) اوجز فيه تاريخ البلاد السورية في مختلف عصورها ، حمل فيه بتهكمه اللاذع على التغني العقيم بذكر الاجداد ، طالباً الى ابنائهم ان ينصرفوا الى تسوية مشاكلهم الحاضرة وتهيئة الغد ، وقد حاول ان يبين بشكل شعري خطابي ان هذه البلاد لم تكن في جميع مراحل تاريخها الا مسرحاً للاستعباد ، مثل عليه الفاتحون من اشوريين الى فرس ويونان وروماني وصليبيين واتراك ، مأساة اليمة منذ كان الزمان ختمت بنشيد الانتداب . وقد عزا سبب النكبات الاولي الى عدم التجانس الاجتماعي ، الى التعصب الطائفي والى اضطهاد الاقليات ، فدعا الى نبذ العصبية انى كان مصدرها والى التكتل الوثيق في كنف الوطن لتحقيق اسمى رغائبه .

« اخواني ابناء هذه البلاد ، سهلها وجبلها وساحلها ؛
كثيراً ما نقرأ ونسمع ان تاريخنا مجيد ،
وكثيراً ما نتغنى بمجد الاجداد وبمفاخر الاجداد
فتعالوا نعيد النظر في اهم ما في التاريخ

(١) كان الريحاني عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العربي في دمشق
(٢) قيل انه رد على خطط الشام لمحمد كرد علي

تعالوا نزور الماضي الذي الهانا عن كل مكرمة

... اقرأوا التاريخ لتدركوا اللب فيه ، فتنسوا اذ ذاك قريضه وقوافيه

اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله، فتودون اذ ذاك ان تنسوا الماضي،

انسوا الماضي ، انسوه غير آسفين

ظفر الميت خيال لا يفيد ، وما حك جلدك مثل ظفرك

اذن ، تعالوا نتفاهم ، فنتآلف ، فنتضامن ، فنتحد في سبيل الوطن بـل في سبيل الحياة .

تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد » .

كان من الطبيعي ان تثير نكبات الريحاني ، وقد بالغ في التزهيد بتاريخ سوريا وحور عمداً بعض حقائقه ، سخط الكثيرين من المتمسكين باوهام الامس القانعين باصداء الذكرى ، فيهاجمون المؤلف ويدحضون ما زعم وهم يخالونه متغرضاً في كلامه يقصد شراً بسوريا بينما هو لم يتوخ الا تحفيز الهمم المتقاعسة الى النشاط المثمر ليحقق النهضة الاجتماعية التي ناضل دوماً في سبيلها .

ويتابع الهادم المصلح الواثق من نفسه طريقه الوعر الطويل ولا يتطلع الى الوراء. ان للاجيال المقبلة حكماً اصوب وانزه من حكم معاصريه ركن اليه شامخ الجبين ثابت الجنان .

٨

تطول غيبة الريحاني عن اميركة ، وله فيها رفاق وقراء ومؤيدون ، فيعزم على بلوغها وقد صمم على ان ينشر سلسلة كتب حول رحلته الى البادية يعرف خلالها العالم المتمدن تعريفاً صحيحاً عميقاً بماهية العرب وبلادهم . وكان اولى الحلقات

كتاب – ابن السعود ونجد – فلما اتمه ودع الفريكة والاهل ولبنان وسافر الى لندن في طريقه الى نيويورك ، وهنالك نشرت شركة كونستابل Ibn Saoud of Arabia ; his people and his land فلاقى نجاحاً نادراً لم يتوقعه مؤلفه ، ذلك ان قراء الانكليزية وجدوا فيه مادة جديدة اخرجت بقالب سائغ نابض فتهافتوا يكتشفون فيه حقائق شعب واقطار لم يعرفوا عنها الا اليسير المبهم . وقد استهل الريحاني كتابه هذا بمقدمة رشيقة عرض فيها غاياته البعيدة مبدياً اعجابه بالسلطان عبد العزيز سيد الحجاز ونجد وخالق نفسه وخاطبه يقول : « بنيتم يا طويل العمر البيوت للبدو فكانت الخطوة الاولى في سبيل تمدينهم فعسى ان تخطوا الثانية فتنشئون لهم المدارس . ان في المدارس تحقيق غايتكم لانها تكمل عمل السيف وتسهل وحدة الجزيرة العربية » . وفي فصوله تناول وصف رحلته من العراق الى البحرين الى العقير فالنفود ليحضر مؤتمراً سياسياً بين جلالة السعودي والمعتمد البريطاني في بغداد وينتقل من ثم الى الحسا فالرياض حيث حل ضيفاً على السلطان الجليل وتابع سيره الى الوشم فالقصيم فالدهناء فالحفر ، تكلم في سياقه عن مقابلاته مع جلالة عبد العزيز وما دار في اثنائها من احاديث بينهما وما حفظه من انطباعات بليغة عن مذهب الاخوان ومجالسهم وعاداتهم وغزوهم وسائر خصائصهم باسلوب بسيط انيق لا يختلف من حيث تعدد المواضيع عنه في العربية ، فبينا هو يحدثك عن الخطة السياسية التي اتبعها ابن سعود في احتكاكاته بالانكليز والقبائل المجاورة اذا به ينتقل دونما اي تمهيد الى وصف البادية وروعتها الاخاذة في الليالي المقمرة ، ليخبرك فيما بعد بما عاناه من الم الحمى في احدى غرف القصر السلطاني بالرياض او ليسرد حكاية ظريفة عن رجال القصر يكوون قمصان مليكهم ، كأنما هو في خلوة مع القارىء يحدثه دونما تكلف بما يخطر بباله من شؤون ومرئيات خزنها في صميمه عن تلك الاقطار النائية . وقد عالج الريحاني بنوع خاص في هذا الكتاب احوال نجد في شتى مناحيها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فرأى الاصلاح موقوفاً على امور ثلاثة الح على السلطان بتحقيقها وهي في زعمه : اخضاع البدو ، حملهم على اعتناق مذهب الاخوان وتـ[illegible] الارض بعد تعليمهم مبادىء الزراعة الحديثة وتثقيفهم .

ولم يشأ امين ان يمر في لندن دون ان يتصل ببعض جامعاتها ونواديها الادبية فاخذ يزورها متعرفاً دارساً ، كما زار القاص العالمي الشهير هربوت جورج ولس الذي تعرف اليه في مؤتمر نزع السلاح في الولايات المتحدة وادلى اليه بآرائه في مجتمع الغد (١) . وقد طلبت اليه جمعية آسيا الوسطى ان يلفظ محاضرة عن بلاد العرب في اجتماع عقدته برئاسة جلبرت كليتون المفوض السامي في العراق ، فلبى رغبتها والقى – نظرة صريحة في جزيرة العرب – Arabia : An Unbiased Survey ، اوضح فيها حالة البلاد العربية في شتى نواحيها كما تبدت لعينيه . وقبل بعد ذلك دعوة الجمعية الملكية للشئون الخارجية وتكلم عن اهداف جولته ونتائجها وما يتوقع منها ، في نخبة عريقة الرقي .

وفي العاصمة البريطانية ، كان الريحاني موضوع حفاوة الاوساط العالية، تلهج باسمه كبريات الصحف وتتكلم عنه المجالس الراقية ،ولا غرو فقد تذوق البريطانيون ادب الريحاني الانكليزي وشاقهم ان يتعرفوا الى صاحبه ويتحدثوا عنه كلما عرض مجال ، ولكم طلب اليه الصحفيون آنذاك مواجهات خاصة ليكتبوا عنه وحوله فكان في جميعها مثال الجنتلمن برصانته وكبره ، وقد اوفدت اليه آنذاك جريدة التيمس مندوبها يدعوه الى ادارتها ويطلب اليه بعض ابحاث عن المشكلة اليمنية النجدية، فكتب لها سلسلة مقالات نشرتها على التوالي منوهة بمكانة الرحالة الكاتب في عالم الادب الحديث ، وواصل طريقه الى اميركة .

ولم تنقض مدة على وصوله الى العالم الجديد حتى طبع كتابه – حول الشواطىء العربية – (٢) فضمنه بعض ما ورد في – ملوك العرب – عن زيارته للحجاز وعسير والكويت والبحرين وعدن وعمان بقالب اخباري فكه بسيط ثم الحقه – ببلاد اليمن – (٣) حيث دون رحلته من عدن الى صنعاء والحديده فدرس فيه جغرافية

---

(١) ذكر هذه الاراء في كتابه The shape of things to come

(2) Arabian Peok and Desert

(3) Around the Coasts of Arabia

البلاد ولغتها ومظاهر العمران المحلي وتكلم عن فن البناء والشعر والادب وما اليها ، كما تحدث عن اليمنيين عـــامة ، فصور اخلاقهم وعوائدهم ومرافق عيشهم بوضوح دقيق وبين اهداف زيارته التي ذكرها لامام صنعاء وهي « ان يرى البلاد ويكتب عنها ثم يتطوع لخدمة شعبها » وقد كان الريحاني في اتجـــاهه هذه شاعراً خطيباً اكثر منه مؤرخاً دقيقاً فــلم يعن بالتنقيب عن مختلف المصادر التاريخية ليقابل بينها ويعلل ثم يعتمد اوثقها بل اقتبل الوثائق في بعض الاحيان كيفما اتفقت له واكتفى بتأويلها على الوجه التقريبي . ففي الصفحة (١٨٦) مثلاً يقول : ان ذا نؤاس اعتنق الاسلام اولا ثم كفر به ليدين باليهودية بينما اثبت التـــاريخ الحديث وفاة هذا الملك قبل ظهور الاسلام ، فلذا لا يصح اعتماده دائماً كأساس تاريخي الا بشيء من التحفظ . ولعل سعة تصاميمه الكتابية عن العرب ، على ضيق وقته ، فرضت عليه الاقتصاد في التدقيق حول المصادر التاريخية فضلاً عن ان هذه الناحية لم تكن اهم غاياته وقد اراد خاصة ، كما رأينا ، ان يعرض صورة بليغة عما احس ورأى وفعل واكتشف في تلك البلاد ، فحقق ارادته الى النهـاية وتمثل القارىء الرحلة في ادق تفاصيلها كما لو بدت ملونة ناطقة على شاشة بيضاء .

٩

لم يكن امين كل حياته يفقه للحقد معنى ، كان يثور اذا مست كرامته ومبادئه ويحنق ، لكنه لا يلبث ان يروق بعد حين وقــد تناسى ما حدث لديه وازداد حذراً . كأنما القلوب الكبيرة لا تحسن ضيافة الضغينة ... يمر امام المنزل القديم حيث قضى سنين الزواج الآمنة وترك بعضاً من وجوده ، فتخطر بباله برتا ، المشيقة القد ترفل بثوبها الارجواني كما رآها لاول مرة ، وتزدحم وقائع الماضي السعيدة في

ذاكرته، يفعل فيها كلها شخص برتا، فيتملكه الوجوم ويهمس في اذن صميمه متحسراً: هنا، هنا جلست تغازلني، وهناك نعم هناك، كانت تقطف ازاهر الربيع، وهنالك ناعمة منورة، طالما استوحت ربة الفنون ... ويشوقه لقاؤها ويبدي شوقه لصديقه ابرهيم الحي فيحاول هذا ان يوفق بينهما.

بيد ان برتا، وقد ازعجها قيد الزواج، لم تلب رغبة الحي رغم تقديرها لامين وتعلقها بنبله، لكنها وعدت بان تجتمع به وتجدد عهد الصداقة التي كانت تربطهما قبل الاقتران. ولما خاب كل سعي للجمع بينهما زوجين متحدين، قررا اعلان الطلاق المدني (١) وعاشا بالفعل كصديقين عاديين لا يصل بينهما الا وشج القرابة الفنية الصرف.

وفي نيويورك، نزل امين العازب، هذه المرة، في نادي المؤلفين وقد كان احد اعضائه (١) فعاش في جو فكري فني هادىء لائم مزاجه وانساه وحشته على نوع ما. وهنالك كان على اتصال وثيق مستمر بالحركة الكتابية العالمية، يطلع على توجيهاتها وينتج ...

عهدنا الريحاني مناضلاً مفادياً في سبيل العرب وكل ما تعلق بشؤنهم، وفلسطين الشقيقة اولى باهتمامه من سواها، وكانت يومذاك قبلة مطامع الصهيونيين يريدون انتزاعها قسراً من سكانها، فراح يدافع عن قضيتها بحماس، يبين حق العرب الصريح ويظهر خطر التوسع الصهيوني في الشرق، يخطب ويحدث ويكتب طائفاً بين الولايات لا يلوى عوده. وقد وجه اليه سنة ١٩٣٠ سماحة الحاج امين الحسيني كتاباً يسأله فيه ان يشترك بالوفد المسافر الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فاجاب معتذراً يقول: «عدت اليوم من سياحتي الخطابية، اشكر لكم ثقتكم بانتدابي لعضوية الوفد الفلسطيني. كنت اود ان اقبل فيما لو تمكنت من القيام بنفقات السفر الا اني غير قادر بهذه الايام وانا لا اقبل مالا من احزاب

(١) لم تنجز معاملاته القانونية الا سنة ١٩٣٩

(٢) ذكر اسمه في دليل مشاهير اميركة Who's who

سياسية جزاء خدماتي للعرب » . ويرافق امين من بعيد مراحل المفاوضات ويعلن رأيه على الهامش في الصحف الاميركية الموجهة وحميته تنمو باطراد .

طال امد الفتور في العلاقات بين الريحاني وجبران وقد عرفنا اسبابه فيما سبق. وما كان هذا الفتور ليطول لو ان الفرص اتاحت الاتصال بين الاديبين ، لقد عاش جبران تلك المدة في اميركة والريحاني بعيداً عنها ولما جاءها (١) كانت صحة الاول قد بدأت تسوء وكان قابعاً في صومعته لا يتركها الا في الندرى ، ينصرف الى فنه ويستقبل المعجبات الحسان ... ولما علم امين من اخيه البرت باشتداد وطأة المرض على جبران ، بادر يعوده في المستشفى ، ولكنه ما كاد يبلغه حتى فارق الشاعر الحياة . فوقف امين جزعاً مكفهراً بين من تقبل التعازي بموت جبران ...

وتضطر المشكلة الفلسطينية امينا سنة ١٩٣١ الى ان يغادر الولايات المتحدة الى الشرق ليدرس اوضاعها عن كثب ويحتك باخص المجاهدين في سبيلها فتقام له حفلة وداعية لائقة في قاعة الحلف السوري في بروكلين اهديت اليه في ختامها كأس فضة وجائزة نقدية فقبل الكأس ورفض المال، وركب البحر الى افريكة يحمل اسى بالغاً في نفسه لفقد صاحب النبي ..

وفي الصومعة كان يدرس الريحاني قضية فلسطين ويقابل اصحاب الشأن فيها ، وكثيراً ما احوجته ظروفها الى ترك عزلته ليسافر الى فلسطين وسوريا ، قصد لاستزادة في الاطلاع والعمل الايجابي المشترك . ولما وصلت رفات ابن بشري الخالد الى بيروت في ١٢ اغسطس سنة ١٩٣١(٢) ، استيقظت لوعة الامين من جديد على فقد جبران واوحت اليه قصيدته النثرية – ذكرى جبران – التي القاها في الحفلة التذكارية بصوت متهدج مخنوق ، وقد ناجى في مستهلها طبيعة لبنان وارزه

(١) كثيراً ما كتب الريحاني عن جبران الرسام الشاعر يحلل انتاجه ، بعد رجوعه الى اميركة . (٢) كان يدرس في نيويورك .

جماله ومستمدات وحي جبران على اختلافها ، من الوادي المقدس الى شاطىء البحر الابيض الى ما وراء الاردن الى باريس واميركة وبطون التاريخ ، ثم انتقل الى تحليل روح الشاعر المتمرد منذ يقظتها الى ان فارقت المادة ، وانتهى الى مدى نبوغه وتأثيره في الشرق والغرب :

« حمل الارث القديم الى ما وراء البحار ...
فزاد البعد صدى الاصوات جمالا وزادت الغربة بجلال المآثر والذكريات.
ظل يسمع اجراس الكنائس في لبنان ، وظل يطرب لرنات العود وغنات القصب . »
ثم ذرف دمعته الاخيرة وقال :
« ما احزنني شيء في حياتك وجهادك مثلما تحزنني هذه العودة منك عودتك الاخيرة الى لبنان وددتها والله لنفسي .
فحبذا الموت يعدل بيننا ، بين من تعددت عوداته ومن تكررت فيه لوعة الحرمان .
ولاعطينك لو استطعت عيني وقلبي لترى الآن ما نراه عنك وفيك .
جبران اخي ورفيقي وحبيبي ،
ان للشهرة يوماً وان للحزن يوماً والباقي للبنان .
لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون الذي يضمك اليوم وغداً يضمني اليه .
... وان ترابي غداً في وادي الفريكة يناجي ترابك في الوادي المقدس .
ومن ظلال الصنوبر الذي سيظلل ضريحي سيحمل النسيم قبلات عطرة ، صباح مساء ، الى ضريحك في ظلال الارز . »

ويعود الامين الى سكينة واديه ، وقد حمله موت جبران على التفكير بنهايته هو ، فراح يكتب وصيته (١) في اوائل سبتمبر سنة ١٩٣١ يضمنها « وصاياه العشرين » وفيها نظرياته الشخصية في الدين والمجتمع والحياة .

(١) ذكرنا بعض هذه الوصية في الختام .

كان يرى الامين المصلح الايجابي الجريء ان يشترك ، في الاصلاح الاجتماعي ، جميع افراد الامة ، كل حسب امكانياته ، ولا سيما المثقفون بينهم ، ويتوقف خاصة عند هذه الناحية في مقالاته وخطبه واحاديثه في كل مجال . كان يؤلمه ان ينصرف الشعراء بكليتهم الى الندب والبكاء والعويل ولا يساهموا مطلقاً بالبناء الفكري وقد ارادهم ، متأثراً بفكتور هوغو ، رسل الناس يرددون صدى البيئة الرجراج ويعملون على معالجة النفوس الضعيفة ينفثون في صميمها قوة وعزماً وثقة بالحيـاة ويحيون مع الفلاسفة الشعور القومي الصحيح . وقد كتب عدة مقالات بهذا الصدد لاذعة التعبير خشنة اللهجة والقى بضع خطب حـادة قارصة في مدرسة البنات الاهلية ، الجامعة الوطنية والكلية الاميركية حملها نقمة شعواء على الشعر الباكي والالم والدموع وتعريضاً قاسياً بالشعراء الندابين .

« في هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة المترهلة بل القلوب الذائبة . قلوب تذوب كلما ناح الحمام ، قلوب تميع كلما اهتز الورد في الاكمام ، قلوب تسيل هياماً كلما تلألأت شمس الاحلام – قلوب مائعة ذائبة على الدوام .

« قلوب تذوب كلما هبت ريح الصبا ، تذوب في الليالي المقمرة ، وعند كل ساقية او غدير تذوب في رابعة النهار لرنة عود ولانة من انات « ياليل » قلوب تذوب في ظلال الصفصاف ، وتذوب امام الفونوغراف – قلوب شرقية مائعة على الدوام . ونحن في زمن الحديد والكهرباء !

« ان حاملي هذه القلوب لاعجز في المحن والنكبات من فراخ القطا ، ولاجبن من صغار الارانب . وما اسرعنا ، وهذه قلوبنا ، الى الشكوى والانين ، الى التلهف والتأوه والنواح ما اسرعنا ، وما اشد صراخنا ، في ميدان الندب والنحيب . كأننا في مندب دائم وكأن الندب مشتق من الانتداب » . كأنه نسي هنا ان في شعره الانكليزي من الميعة الرومانطيقية والالم والدموع شيئاً ليس باليسير . وينشر الامين هـذه الانتقادات سنة ١٩٣٣ في كتيب اطلق عليه عنوان – انتم الشعراء – اثار ضجة كبيرة في الاوساط الشعرية في لبنان ، فتوهم بعض

الشعراء ان الامين قصدهم تشفياً وحسداً في كلامه واصدروا رداً غفلاً – اجل نحن الشعراء – عارضوا فيه كتاب الريحاني حتى بعناوين فصوله وخصائصه الطباعية محاولين تحطيم انتاجه والحط من قدره. واحتـــدم الاشتباك القلمي طويلاً في الصحف والمجلات، يخوضه كل ذي علاقة او طالب شهرة يساعد الامين او عليه، وقد وضعت مجلة المشرق عدداً خاصاً آنذاك حللت فيه الكتابين كليهما بدقة لا بأس بها، متخذة نوعاً جانب الدفاع عن الشعراء. والامين الى ذلك ثابت في عقيدته واثق ابداً من ترفعه عن الغاية الخاصة في ما يقول ويكتب.

١٠

عهدنا الريحاني خطيباً حراً لا يداجي ولا يجامل ولا يرضى دون الحق والحقيقة هدفاً. طال عهد الانتداب في بلاده واستبد المنتدب وطغى والشعب، الا اقله خانع راض يمالىء او يتغاضى لا مبالياً، فابى الا ان يفتح العيون المتعامية على الواقع المذل الحرج. فلما دعته جمعية الحياة الادبية في بيروت لابداء رأيه في وضع هذه البلاد، سنة ١٩٣٣، لفظ خطبه البركانية – بين عهدين – يضمنها ما احتشد في صدره من سخط حرون على الانتداب واوليائه ومريديه، فقابل بصراحته الجريئة بين عصر عبد الحميد والعصر الحاضر، بين اول وقفة وقفها في بيروت منذ نحو ثلاثين سنة وبين وقفته الاخيرة قـــال: «اننا انتقلنا من عصر عبد الحميد الى عصر الانتداب السعيد من ظلم ظاهر مختـل الى ظلم خفي منظم من ظلم يحمل النبوت والكرباج فيتقيهما الناس الى ظـلم يحمل الدساتير والمعاهدات» فبلغ الخبر حالاً الكونت دي مارتيل، المفوض السامي الحاكم بامره، فاوعز بنفي الخطيب عن لبنان ثلاثة اشهر قضاها امين في ضيافة الملك غازي في بغداد. وقد وجه كتاباً قبل

ذهابه، الى جريدة – النداء – ودع فيه الاصحاب وغـير الاصحاب في بيروت قال فيه: «ما احزنني مما كان لهذه الخطبة من النتائج الاجتماعية والسياسية غير غيرة بعض الناس اخواني في هذه البلاد على ما يظنونه مصلحة الفرنسيس وكرامتهم فصحت فيهم الكلمة الفرنسية المأثورة Plus royaliste que le roi وقد امعنوا في نزعتهم هذه فتجاوزوا التأويل والتشويه لما قلت تجاوزوهما الى الوشيان والاغراء فقالوا اني فضلت عهد عبد الحميد على العهد الحاضر (والمقابلة بين العهدين غير التفضيل) وقالوا اني عدو الفرنسيس والانتداب وعدو السلطات المحترمة كلها. وما انا بعد لغير الجهل والخوف والتعصب في الناس ولغـير الظلم والاستئثار والفساد في السيادات والاحكام، انما انا عدو اعمال لا عدو رجال» ثم ينتقل الى القول، «انه ليحزنني والله ان يكون بين هؤلاء من الاسياد والصعاليك من لا يهمهم غير خبز يومهم وان جبل هذا الخبز بالتزلف والذل والخداع وعبا ان داءهم في قلوبهم كما هو في جيوبهم فاني اسدل على ذكرهم ستار الشفقة والغفران»

ويعود الريحاني الى لبنان بعد تدخلات جمـة قامت بها السلطتان البريطانية والاميركية لدى وزارة خارجية فرنسا وهو على اشد ما يكون نقمة واعية على الانتداب والمنتدب، فينشر كتابه – فيصل الاول – تاريخ شامل لعاهل العراق صدره بمقدمة طويلة، رد فيها على من اتهمه باضطراب لبنانيته قال: «يريب بعض الناس حبي للعرب وملوكهم واهتمامي الدائم بشؤونهم وقد انتقدني نفر من الكتاب فقالوا ان وطنك القريب لبنان لا حق باهتمامك من الوطن البعيد... ولكنت مستحقاً مذماتهم كلها لو ان حبي للعرب افقدني ذرة من حبي للبنان» ثم انتقل الى الكلام عن الحكم الملكي والجمهوري عامة بالنسبة الى الشعوب وطبقاتهـا. وحلـل فعاليته ومقوماته الصحيحة بدقة وافية فتناول مطولا حياة فيصل واخلاقه واحوال معيشته ووصف كيفية بلوغه الملك وما قام به من بطولة وتضحية لاجل هذه الغاية كما ذكر بعض احاديثه مع صاحب الجلالة اثناء زيارته الاولى للعراق وبين ذلك الدور الاولي الذي لعبه الكرنل لورنس على مسرح

السياسة العربية ثم ختمها برسالة شعرية خاطب فيها روح فيصل بجلال واعجاب وبخطبة القاها في حفلتي الاربعين لذكرى فيصل في دمشق والقدس تحت عنوان « النسر العربي ». نهجه الكتابي رشيق بسيط لا يختلف من حيث فكاهته ولذعه عن سائر الجولات الاخبارية التي دونها الامين ، مستنداته التاريخية قيمة على الاغلب تؤيدها مراجع وثيقة ودروسه صائبة وافية لا تخلو احياناً من بعض المبالغة في التقدير ربما فرضها عليه عرفان الجميل حيال من اكرم ضيافته في المنفى من جهة ونقمة شديدة على الفرنسيين اعداء فيصل من الجهة الاخرى .

ولما اقيم مهرجان الفردوسي في ايران سنة ١٩٣٤ بمناسبة الذكرى الالفيه لمولد مؤسس الشهنامة ، كتب امين في صومعته رواية تمثيلية قصيرة — وفاء الزمان — اظهر خلالها الفردوسي رسولا خالداً ينادي باحياء الارض ونشر العلوم وشخص الزمان اباً وفياً لا يجحد بفضل ابنائه ، فراقت المسرحية اللبقة جلالة الشاه رضا بهلوي امبراطور ايران وامر وزارة المعارف بان تمنح المؤلف ارفع اوسمتها (١) اما المسرحية بحد ذاتها فضئيلة القيمة الفنية رغم انها صدرت عن صميم الريحاني وجسدت رأيه في ان الرجل كل الرجل يفرض فعله على الخلود .

* * *

في سهرات الشتاء الطويلة ، عندما كان امين يسأم استمرار العمل في وحدته ، في الفريكة ، كان يرافق ام امين وسعدى لزيارة الجيران . وهنالك حول الموقد على « الطراريح » وقد ساوت الالفة والبساطة القروية بين الحاضرين ، كانوا يلعبون « بالمظلوم » ويتنادرون ويقهقهون ، فتعود بالامين الذكرى الى عهد الطفولة واخبار جحا والزير ويقابل بين امسه ويومه ويتأمل ...

---

(١) ارسل الوسام الى قنصلية ايران في بيروت حيث قلد الريحاني في حفلة رسمية اقيمت لهذه الغاية .

كان يقصد امينا في الصومعة جموع المتسولين ومحترفي التسول وقد عرفوا عنه السخاء المجرد فيعطيهم نصيبهم خفية عن اخته سعدى ولا يرد سائلا . وكانت سعدى، اذا علمت باحسان اخيها الى من لا يستحق ، تثور وتعاتبه قائلة : « ان صاحبك المحتال دنيء لا يجوز الاحسان اليه يا امين . ضع حداً لهذا التبذير والتهور . ان امامك الشيخوخة المقبلة وعليك ان تعيل اهلك » فيجيب مبتسماً ملاطفاً : « الكفن ما لو جياب يا سعدى . معنا لنا وللناس ، ما معنا لا لنا ولا للناس » . جواب ينم خلال بساطته المؤثرة على طبع الرجل المعطاء اللامبالي بمادية العيش .

كان امين في تنسكه هذا على صلة دائمة برفاق جهاده ، يزورونه مرة ويتراسلون مرات ، وقد وجه يومذاك كتاباً الى صديقه فؤاد الشمالي صاحب – المريخ – يحثه على العمل المستمر قال : « ان في الوادي زنابق الحب وصنوبر الجهاد وماء الحياة وهي لك ولي ولكل من حمل معولا ومشعالا في هذه الامة ، قد يقل الزيت في سراجك وقد ينطفىء السراج ، فيظل المعول بيدك ويظل في رأسك عنان – نوران – بنيران الطريق ان المعاول يا اخي لالزم ما يلزم هذا الجبل الكثير الصخور . المعاول ! المعاول ! لتنقر في صخورها اليوم وتحطمها فتصير حجارة تصلح للبناء وتصير تراباً يصلح للغرس والزرع . حطم اذن حطم ولا تخف انك من العاملين للبنائين والزارعين حياك الله واكثر من امثالك وانصارك » . ان عقيدة الريحاني وقد جاوز الستين لا تختلف من حيث صلابتها عنها في صبوته . لقد حمل ويحمل المعول وحطم ويحطم متفائلا ليقيم على الانقاض بناء حديثاً وطيداً يلائم تطور العصر .

وكأن فيصل الاول لم يستوعب كل ما اراد تدوينه عن بلاد الرافدين ، فاتبعه – بقلب العراق – خاتمة كتبه المطبوعة ، بحث فيه عن جغرافية تلك الدولة وتاريخها منذ غزوة هولاكو الى اليوم ودرس عقلية الشعب وسذاجته البريئة واستسلامه الاعمى لمشيئة القدر كما وصف مسالك عيشه وطبقاته وما اليها من

الخصائص النموذجية ، جعله ثلاثة اقسام تخللتها الخرائط والرسوم ، تناول في اولها بغداد بصورة عامة وفي الثاني الآثار القديمة وغزوات الاثويين الاجانب لها ، فقال: «انه خير للعراق ان تبقى آثاره مدفونة في ارضه من ان تطير الى ما وراء البحار» اما في القسم الثالث فتكلم عن النهضة في الوانها وظلالها ، درس حالة الثقافة والتعاليم الطائفية وتحدث عن المع الشعراء هنالك وعلاقاته بهم ولا سيما الرصافي ، حتى اذا انتهى الى السياسة والسياسيين قال : « اما سياسي بغداد فلا اظنك تجد له صنواً في الشرق او في الغرب . فان عقليته مزيج من الغبار والرماد غير ان قلبه مضمخ بالطيب ولسانه لسان الخطيب » . اسلوبه واقعي فارص تجلت فيه الصراحة احياناً في اخشن وجوهها ولا غرو فامين كان يعتقد على حق ان ما يكتب للتاريخ لا يجب ان يتأثر بغير الحقيقة العارية . فلما نشر الكتاب وبلغ العراق منعت وزارة الداخلية تداوله فيه وصادرت نسخه المباعة زاعمة «انه يحتوي كثيراً من المباحث التي تتعارض مع المصلحة العامة والتي لا تتفق مع الحقيقة».

لكن ذلك لم يثن الامين عن مواصلة جهاده او يضعف ثقته بالاصلاح وهو ادرى من سواه بمآرب المتغرضين ودسائيرهم ، بل تابع عمله الجدي بشأن القضية الفلسطينية التي ترك اميركة من اجلها ، يكتب في صحف الاقطار العربية كافة مؤيداً حق العرب الراسخ ويلقي الاحاديث المقنعة ليوقظ الرأي العام على الحقيقة كما هي . وقد وجه آنذاك رسالة الى ملوك العرب اثبت فيها الحجج القاطعة في دعم حق الفلسطينيين قال: «اما حق العرب الوطني القومي التاريخي القانوني فظاهر كالشمس في رائعة النهار يؤيده اولا عهد الحكومة البريطانية الذي قطعته للملك حسين (ك ٢ سنة ١٩١٦) بتأسيس دولة عربية تشمل فلسطين وسوريا والعراق ثانياً يؤيده تعهد الحكومتين البريطانية والفرنسية في بلاغهما الرسمي (ت ٢ سنة ١٩١٨) الذي يضمن لمن كانوا رازحين تحت مظالم الاتراك ، اي العراقيين والسوريين والفلسطينيين حقوقهم في تأسيس حكومة وطنية تستمد سياستها من مشيئة الاهالي الحرة. ثالثاً تؤيده المادة التي تقدم ذكرها (وعد بلفور ت ٢ سنة ١٩١٧) وفيها تتعهد الحكومة البريطانية الا تقدم على عمل ما مضر بحقوق

اهل فلسطين الدينية والمدنية وتؤيده رابعاً الفقرة الرابعة من المادة ٣٢ من معاهدة فرساي التي تضمن لاهالي فلسطين وسوريا والعراق الحق في تقرير مصيرهم ».

وكيف لا يدافع الريحاني عن حق العرب بفلسطين ، ذلك الحق الواضح الصريح ، وقد نادى بمبدأ تقرير الشعوب لمصيرها ونذر نفسه لنصرة العدل وخدمة العرب .

١١

كان الريحاني يعتقد ان الدعاية للعرب ولا سيما الفلسطينيين ضرورية جداً في الاوساط الاميركية « لاسباب ثلاثة : اولاً لمقاومة الدعاية الصهيونية التي اضرت كثيراً بالقضية العربية وشوهت سمعة العرب الطيبة ، ثانياً لتشجيع الاميركيين الراغبين في الدفاع عن قضية العرب ثالثاً لرفع شان السوري واللبناني والفلسطيني في الولايات المتحدة » . فلما دعته مؤسسة التربية الدولية في اواخر سنة ١٩٣٦ الى القاء سلسلة من المحاضرات عن الشؤون العربية والاحوال السياسية والتراث الادبي في الشرق الادنى عموماً ، لم يتردد في تلبية دعوتها وقد وجد فرصة ملائمة لتحقيق مسعاه . فلما بلغ مرسيليا وجه رسالة الى امه تجلى فيها تعلقه اللاهف بها وبساطته النبيلة ، هذا نصها :

« من الباخرة في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٧

الوالدة الحبيبة ام امين حفظها الله وامد بعمرها .

ما شعرت في سفرة من سفراتي بما اشعر به اليوم . ولقد حاولت ساعة وداعك ان اخفي الدمعة التي تكونت في طرف عيني على اني متيقن ، ويقيني هو بعض ايماني واملي بالله ، ان ساعود اليك في الصيف القادم ، وساكون من اسعد الناس يوم اشاهدك

بالفريكة وامتع عيني وقلبي بك — واكلفك بان تمسدي ظهري ويدي (١) .

يا ام امين العزيزة — يا اعز اعزاء امين — اسمعي هـذه القصة وهي من اغرب ما حدث وانا في نابولي . فقد زرت صديقاً طليانياً في ضواحي المدينة — زرته في بيته فكانت والدته في البيت وكان هو عند بعض اصدقائه . فارسلت اليه رسولاً يخبره بقدومي . واخذت هذه السيدة الشيخة تحدثني بلغة لا افهمها . هي مثلك الا انها اقل سناً منك ولكنها مثلك ورعة تقية غيورة غيرة دينية حـارة . وهي رئيسة اخوية . جاءتني بصورة السيدة ، سيدة بمباي المتعبدة لها واعطتني اياها . فذكرتك وحفظت الصورة وانا مرسلها اليك الآن والسيدة الطليانية هي ايضاً مثل ام امين بالفريكة تجمع المال لاخويتها — « شحاده » مثلك يا ام امين ، يا ويل امين فقد هرب من الفريكة ووقع في الشرك في نابولي . اعطيت باسمك ما اعطيتها من رئيسة اخوية الفريكة الى رئيسة اخوية بمباي !! واخذنا الصورة الواصلة طيه فما قولك دام فضلك .

وصلنا صباح اليوم ٨ ك ٢ الى مرسيليا وسنستأنف السفر هذا المساء — رأساً هـذه المرة الى نيويورك فنصل عندما يصلك كتابي هذا او بعد يومين من وصوله اليك .

شدي حالك ايتها الوالدة الحبيبة وليكن ايمانك بالله شديداً قوياً . فسيمن علينا بالاجتماع كما اذن بالفراق ، سبحانه وتعالى .

سلمي على عفيفة وام يوسف . وعلى الجيران ومرشد ونافله وعلى العمة امادمون واهل بيتها . وعلى كل من يسألك عني من الاقارب والجيران .

وهذه قبلات حارة لك ولسعدى من قلب . امين (٢)

هذا هو الريحاني الاديب العالمي وعشير الملوك يذكر بافتخار جيرانه القرويين عفيفه وام يوسف ومرشد ونافله وام وادمون ويبلغهم مودته الاكيدة .

---

(١) كانت تقوم والدته بتمسيد يده وظهره عندما كانت تنتابه نوبة عصبية

(٢) عن كتاب — امين الريحاني — لالبرت الريحاني

يبلغ امين الولايات المتحدة ،فيشرع يلقي محاضراته في مختلف الولايات وخاصة في كاليفورنيا وشنطون واوروبغون، وقد بحث في القسم الثقافي منها حول اثر العرب في المدنية العالمية وقيمة الف ليلة وليلة ، مصادرها الفارسية وصلتها بحكايات « بوكاتشو »ثم النهضة الادبية الاخيرة، وقابل بين طاغور و كبلنغ وحلـل نقاط التلاقي بين الشرق والغرب . اما في القسم السياسي، فعالج الانتداب في الدول العربية وما اثار من اضطرابات شعبية في سبيل التحرر وتكلم عن العلاقات القائمة بين مختلف الاقطار العربية وجيرانها وانتقل منها الى الحلف الشرقي، كما درس صلات الشرق العربي باوربة واميركة وعرض قضية فلسطين مبينا اغتصاب الصهيونيين الفاضح (١)، وقد كتب الى اهله سنة ١٩٣٧ يصف احدى رحلاته قال : « تركنا بلنغ وست فرجينيا الى شيكاغو والمسافة بين الاثنتين تقارب الـ٤٨٠ ميلاً ثم تابعنا سيرنا الى ميتروبوليس منبشتا وهي تبعد ١٢٠٠ ميلاً عن الخطة التي وضعت لرحلتنا ولبينا الدعوة لسبب واحد هو الدفاع عن حقوق العرب ». عـلى ان دفاعه عن فلسطين لم يكن لينحصر في هذه المحاضرات وحدها بل تعداه الى الابحاث الصحفية الضافية والى المناظرات العلنية تجري بينه وبين اقطاب الصهيونية كجاكوب ديهاس وموريس صموئيل ، وقد كتبت جريدة التيمس ستار في سنسناتي اوهايو اذ ذاك ما ترجمته : « اجتمع خلق كثير برعاية جمعية السياسة الخارجية في نزل جبسن لاستماع حوار جرى حول القضية الفلسطينية بين الريحاني وموريس صموئيل اعلن الاول في سياقه ان الصهيونية في فلسطين قد تطورت من روحية مسالمة الى سياسية جائرة طامعة في التوسع والاستيلاء عـلى الاحكام » وقد اقترح امين في مقال نشرته مجلة « فلسطين وشرق الاردن » الانكليزية انشاء وطن قومي في ولاية تكساس باميركة اذا كان لابد من ايجاد وطن قومي لليهود. ولمـا اقبل الصيف وانهى محاضراته في الولايات المتحدة هم على الرجوع الى لبنان وقد عاهد والدته بموافاتها قبل عيد السيدة . فاقيمت له حفلة وداعية ودية خطب فيها الدكتور

(١) عن نشرة كولستون ليغ .

ويليام ارنست استاذ جامعة هرفرد منوهاً بخصائص الريحاني رمز الاشعاع الشرقي الساطع .

ويعود الامين الى لبنان راضياً عما قام به من خدمات في سبيل اخوانه الفلسطينيين ، خدمات كان يعتبرها واجباً مقدساً عليه اداهـــا مختاراً يفعمه فخر التضحية .

***

كان البرت يوافي اخاه امينا كل ليلة بصحف العاصمة واخبارها عندما يعود من عمله . ففي ذات مساء بينما كانا يتحدثان ، ابلغه ان مي زياده خولطت في عقلها وادخلت مصح العصفورية ، فانتصب هـــذا مذعوراً يستوضح اخاه : مي الاديبة ابنة الياس زيادة مجنونة ؟؟ ماذا تقول يا البرت ؟ ... حتى اذا رأى الخبر بعينيه في الصحف وتأكد صحته ثار ثائره وصاح : لا ! لا ! كيف يكون هذا ؟ وللحال مرت في ذهنه ذكريات الامس البعيد ، فتمثل مياً في كوخها الاخضر وتمثلهـــا تميس امامه في الصومعة حيث هو وتمثلها في مصر تخطب وفي سفح الهرم ثم تخيلها مجنونة في المارستان ، فوجم واضطرب واسودت الدنيا امام ناظريه .

ونزل امين في الغد الى بيروت يزور مياً وقد نقلت الى مستشفى ربيز ، فرفضت ان تقابله وتمرمرت ساخطة ، فلم يكن منه الا ان فتح عنوة باب غرفتها ودخل واذا بها نهكة هزيلة ترغي وتزبد ولا تود ان تشاهد امرءاً . حاول ان يهدىء اعصابها ملاطفاً في بادىء الامر ، لكنها ازدادت هياجاً ونقمة ، فاغبر للحال وجهه وحـدق اليها بعينين مترعتين بالمرارة تعبران عن حرقة النفس واستسلما كلاهما الى الصمت البليغ . وبعد وجوم لم يكن قصيراً ، تأوهت المريضة وتمتمت : « لقد ظلموني يا امين واذاقوني من الاضطهاد امره » وشرعت تروي قصتها وهي لا تتهالك عن الزفير اللاهب . فامض الريحاني ذلك المشهد المؤثر ، لكنه تجلد عن ابداء اساه واملها بالفرج

القريب ثم صافحها دامعاً ونوارى ...

وكانت المرة الاولى التي رأى امين فيها مياً بعد ان تركها في سفح الهرم سنة ١٩٢٢ زاهية تتفجر حياة ورجاء وغبطة . . .

١٢

عندما غادر الريحاني مصر سنة ١٩٢٢ عاهد مياً على ان يراسلها ويعلمها باحواله كل مدة ، لكنما شاءت الظروف غير مشيئته ، كثرت عليه المصاعب في الجزيرة وتراكمت مشاغله حتى كادت تنسيه كل ما عداها . ولما رجع الى لبنان وعلم بعلاقاتها الخيالية بجبران ، التي كانت يومئذ حديث الجميع ، لم يخطر له ان يجدد صلاته بها لا سيما وانه حفظ اثراً سيئاً عن المرأة وتقلباتها بعدان خذلته برتا . اما مي وقد آلمها اعراض الريحاني عنها ، راسلت جبران وهو في اوج شهرته يومذاك فرد عليها باهتمام وتوثقت بينهما روابط المودة رغم البحار الفاصلة ...

ومات جبران فهلعت مي واضطربت ، ثم توالت عليها مواكب الشجون وساورتها السويداء واورثتها مع الايام عوارض الهستيريا التي تلازم عادة يأس العوانس العاطفيات عند مناهزة الخمسين ، فنسب اليها الجنون وكان من امرها ما كان ...

وتترك «المجنونة» المستشفى وتسكن مخدعاً قرب الجامعة الاميركية كان يعودها فيه امين والبرت الريحاني ، شارل مالك ،قسطنطين زريق ، خليل الحوري والامير عبد القادر الجزائري يؤسونها حيناً ويخففون عنها وطأة الآلام .

وكأنما المصائب للامين بالمرصاد لا تأتيه الا مزدوجة ، فبينما كان يعمل في مكتبه

ذات صباح، وافته سعدى شاحبة الوجه خائفة تناديه: «اسرع يا امين ان امي تنازع» وبعد هنيهة كان الريحاني فوق رأس امه وكانت قد لفظت روحها فجأة قبل ان تراه، فعض على سبابته وقال: «تموت امي يا سعدى ولا تخبرينني». «ان نزاعها لم يدم الا ثوان يا حبيبي» اجابته سعدى دامعة ناحبة، فوجم حيناً يصغي الى صوت باطني يردد: قلما الموت يراعي شعور البنين يا امين، ووقف ذاهلاً يفرك يديه وهو يصرف اسنانه، ثم دخل الصومعة يواجه نفسه في السكون ويستعيد بالذكرى مراحل حياة ناعمة قضاها في كنف ام امين...

وتدعوه الى نيويورك بعد مدة المحاضرات السياسية والثقافية التي لم يكن اتمها بعد، فيستأذن مياً ويسافر الى الولايات المتحدة والغم والهم البفاه وهنالك انجز مهمته سريعاً، نور الرأي العام الاميركي على تطور القضية الصهيونية واظهر اهمية الانتاج الفكري في الشرق الادنى ثم رجع للمرة الاخيرة الى لبنان، وكان الجو السياسي ينذر بالتفاقم الشديد. وفي طريقه، عرج الى المغرب الاقصى، يطوف اقاليمه دارساً اوضاعه بامعان، وقابل حضرة الخليفة وباحثه في شؤون بلاده (١) فاكرم هذا وفادته وقلده ارفع وسام لديه. وواصل امين سفره الى لبنان وهو قلق عطش الى اخبار مي...

وصل الريحاني الى بيروت والصيف في اول احتدامه، وكانت المريضة قد بدأت تتعافى وتستعيد حيويتها (٢) وقد اشار عليها الطبيب بان تصطاف في منطقة متوسطة الارتفاع، فاقترح امين نقلها الى منزله في الفريكة، فمانعت في البدء كل الممانعة وابت ان تنزل في بيت لم يخصص لها، حتى اذا وعدها بان يهيء لها مسكناً مستقلاً تعيش فيه وحدها، قبلت دعوته وجاءت تتنسم الوحي في الوادي!!

هذه هي مي ترجع الى الفريكة، بعد ربع قرن وقد اعتراها الهزال وحطمتها

---

(١) اختاره معهد الدراسات العربية في المغرب رئيس شرف له

(٢) القت محاضرة قيمة في الوست هول في تلك الاثناء

العلل وهذه هي الفريكة نفسها تستقبلها اليوم، كما في الامس، ضاحكة تدفق حياة. وهنالك في مسكن قروي بسيط، كانت مي تقضي ساعات النهار تعمل في المنزل او تطالع وتكتب او تتأمل الى ان يقبل الليل فيزورها امين وسعدى والبرت يلعبون معها «البينا كل» ويتنادرون ويضحكون ... والايام تستمر والذكريات تعاود مياً، لدى اختلائها بنفسها، فترتعش ناقمة، ويخنقها الزفير ...

ويولي الخريف ويأتي الشتاء، وتسافر مي الى مصر، وقد هدأت اعصابها على نوع ما وعاودها النشاط، وهي تحفظ للريحاني وللفريكة واهلها، في الصميم، اسمى جميل.

***

اطمأن امين بعض الشيء الى صحة مي فاستأنف، بعد ذهابها، العمل الجدي واخذ يصنف كتاباً عن المغرب الاقصى تحدث فيه عما شاهده، اثناء سياحته الاخيرة، من عادات شعبه واطواره وحالة المجتمع وخصائصه وعظمة جبل طارق والى كل ما هنالك من امور تساعد في اظهار واقع المغرب.

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية، صعق الريحاني صعقاً واضطرب، ولا غرو فقد خبر عواقب الحروب من قبل وما جرت من الويلات على العالم وعلى هذه البلاد بنوع خاص. وكأنه اراد في تلك المحنة العصيبة ان يحتك مباشرة بمواطنيه يستكشف اوضاعهم ويخفف من وهلتهم، فراح يجول في المناطق اللبنانية يتعرف اليها بتعمق ودقة دارساً ميزاتها ونزعات اهلها، زائراً اديرتها واشجارها الضخمة منقباً عن تاريخ قديسيها واحبارها وادبائها وعائلاتها مستقصياً عن تقاليدها المحلية واصفاً طبيعتها وجوها ليجمع كل ذلك فلذة حية في — قلب لبنان — الذي لم يتسن له ان يتمه (١).

(١) بقي مخطوطة الى اليوم، ثم نشره اخوه البرت مع هذا الكتاب فجاء تحفة ادبية جديرة بالريحاني

وفي – قلب لبنان – قلب الامين الشاعر يختلج خلال السطور ، يصف لك مشهداً طبيعياً وما يوحي اليه من ذكريات وافكار ، فتخال نفسك ترى وتلمس وتعيش ماتقرأ كيف لا وقد عاش الامين المشهد قبلك واخرج مع الوصف انفاساً حارة تحييه .

« ارز لبنان – رفعت حجراً من حجارة الطريق الى فمي ، فقبلته ورعاً حامداً آملاً ، قبل ان دخلت الظلال القدسية .

واستغفرت الارز لامتهاني حرمة عزلته – هذه العزلة الفريدة في اعـالي الجبال ، فوق وكر النسور ، وراء حجب الآفاق .

استغفرت الارز لاني جئت اشق ستار كعبته ، جئت استكشف مكنون سره .

ايه ربة الاشجار وسيدة الجبل الجبـار ، انت الرافعة اعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء ، بنت الجديدين واخت القمرين ، حدثيني ،

حدثيني ، وعلميني ، وارفعي بي الى علياء ايمانك .

فقد جئت مستعلماً ، مسترفعاً ، مستمداً من ينبوعك العالي القوة والحكمة . »

وفي قلب لبنان ايضاً، معرض عالمي لقادة الفكر والحروب وخطرات فلسفية مستمدة من عبر الزمان منثورة خلال فصوله . اما اسلوبه الكتابي فتغلب عليه اللذعة الريحانية القـارصة ، شعري تارة ، اخباري او انشائي تارة اخرى حسبا تقتضي المواضيع وهي متعددة كثيرة شأنها في جميع الجولات الكتابية التي اخرجها المؤلف ، قد يعوزه استحكام اوثق في لحمته وصقل اوفى في انشائه ، ولكن هذا لا يضير مخطوطة لم يقيض لها الانجاز .

وكأنما الاقدار شاءت ان يموت الريحاني وقلبه معلق في – قلب لبنان – فسولت له في الخامس عشر من اغسطس سنة ١٩٤٠ ان يركب الدراجة بعد ان انقطع عن ركوبها اربعين سنة ، وانطلق مسرعاً واثقاً من مرونته الى ان بلغ احد المنعطفات الوعرة حيث فاجأته النوبة العصبية في عناه فعجز عن متابعة السير

وهوى الى الارض وقد ترضرض رأسه وفخذه اليسرى رضوضاً اليمة نقل على اثرها الى مستشفى ربيز في بيروت، وهنالك كان يعوده الاحباء والخلان يتسامرون ويمزجون ولم يكن يخطر لاحدهم ان ضربة الامين حاسمة قاضية . وتفاقمت جراح فخذه واشتد الوجع ، وهو رابط الجأش صابر ، الى ان كان اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر ، يوم فقد الطب كل رجاء بالشفاء ، فنقل الى الفريكة بناء على رغبته ، كأنه تذكر لامرتين في قوله : « اعرني ملجأ يوم واحد يا وادي الطفولة انتظر فيه منيتي » فاني الا ان يغمض عينيه في الوادي الذي احبه كل حياته .

ولما تملكته حشرجة النزاع ، تزاحمت في ذهنه ذكريات الامس كلها ، الآب مرقس وقضيبه ، عمه عبده ونيويورك ونيوبورغ والفواتير والمنزل الرطب والعربدة والتمثيل ونعوم ثم مي وبوتا والبادية ولبنان وام امين وسعدى والصومعة والفريكة، وارسل نظرة الى صميم الافق والى من حوله يودع ويحدق في رسول الموت وفارق الحياة ...

لقد صافح الموت باسماً لا يخشاه وقد عهده « منبر الخلود » وكيف يخشى الموت من فرض على الزمان نفسه وفعله ، او لم يقل تازه Thèsee (١) البطل اليوناني الباني ، عندما احس النهاية « ها انذا ادنو من الموت قانعاً فبنو الانسان بعدي وبفضلي سوف يحيون اسعد من اسلافهم واكمل واوفى تحرراً . ان الخير الانسانية المقبلة، قد اخرجت انتاجي. لقد عشت حياتي.

وامين ،رحم الله امينا ً، لقد عاش حياته وفعل ... لخير بني الانسان .

* * *

---

(١) كتاب إندره جيد

وفي الغد دفن الامين بجوار امه بين دموع الاهل والرفاق (١) فمضى ذلك المجاهد المتمرد الذي لم يعرف الوهن ساعة في حياته، وقد خلف آثاراً مخطوطة كثيرة، بينها اربعة اجزاء من الريحانيات، بمجموعة مقالات وخطب وخواطر يعرض فيها عرض ذكرى وتفكير ما شعر به ورآه في جولاته ومطالعاته الاخيرة باسلوب هذبه التمرس والاختبار، وعدداً كبيراً من رسائله الخاصة، التي كان يوجهها الى اشخاص اختلفت طبقاتهم وجنسياتهم، تنم عن اخلاقه بوضوح وبعض كتب انكليزية – العراق – الملك فيصل – دروس في الف ليلة وليلة – وجده – وكريه لا يلبث المستقبل ان يظهرها بعد حين ويظهر الريحاني حياً خلالها.

هذه هي المرحلة الثالثة من حياة اديبنا، انتهت بموته كما رأيت، مرحلة كلها عمل ونضال واضطراب لم يذق الراحة خلالها الا لماماً. وجدناه في اولها يحقق حلماً تمكن منه، بقصد البلاد العربية، يحتمل مختاراً عناء التنقل المضني على ظهور الابل والخيل والحمير في مناخ سيء حار ويقاسي المرض والآلام مخاطراً بحياته كل ساعة في سبيل توحيد الجزيرة وانهاض العرب وتقاربهم، ثم سمعناه يندد بالانتداب ومريديه لا يخشى نفياً ولا عذاباً لاجل العدالة ويدافع عن فلسطين الشقيقة في الشرق والغرب بكل ما اوتي من عزيمة ومنطق وجرأة، لايبتغي الا خدمة الحقيقة والخير فمات وهو على اشد ما يكون حمية واستعداداً للقيام بالواجب الانساني، لكنما ثمار جهاده لم تمت بموته بل قاوم الفناء بعضها وحافظ ويحافظ على طراوته الشهية وفعاليته طالما للحرية مريدون « اشياء كثيرة تذكرنا هذه الايام بامين الريحاني، اولها الصدام الضخم الذي يشهده العالم – ويشهد نهايته – بين قوى التقدم والرجعية، لانشاء مجتمع جديد يتمتع فيه الافراد والشعوب باكثر ما يمكن من اليسر والحرية. وثانيها مشي الشعب اللبناني قدماً نحو استكمال شروط السيادة والحياة الاستقلالية،

(١) كانت مناحته سوقاً ادبية تبارى فيها الادباء والشعراء على اختلاف اقطارهم يعددون مزايا الراحل ويقرون بفضله. وقد اصدرت المكشوف اذ ذاك عدداً خاصاً وصفت المناحة وذكرت بعض المراثي.

وقد كان الريحاني من انشط العاملين ، بقلبه ولسانه ، في الحقل الوطني يلمس اثر ذلك في كل ما كتبه واذاعه ، وثالثها مشاورات التعاون العربي الذي كان الريحاني من اصدق الداعين اليه والساعين له عن الطريق المثلى طريق التعارف بين مختلف الاقطار العربية ، بعرف العرب بانفسهم ، ويعرف بعضهم الى بعض في مؤلفات قيمة ممتعة ، من « ملوك العرب » الى « قلب لبنان » (١) كما يذكرنا به كل تجديد جريء في حقل الادب وكل تضحية ابية في خدمة العقائد السامية وكل صرخة صريحة في سبيل الانسانية والعدالة والحق .

* * *

(١) عمر فاخوري - الحقيقة اللبنانية

وصية الريحاني

لا بد لي في ختام هذه الدراسة من ان اقول كلمة على وصية الريحاني (١) وان اسرد بعضها لانها تلقي نوراً كاشفاً على الحقائق التي اعتنقها الريحاني آخر ما اعتنق واراد ان ينادي بها عبر القبور :

« لم تكن حياتي حياة القديسين والاولياء والحمد لله ولا حياة اولي الثروة او اولي السيادة والحمد ثم الحمد لله ولا حياة ذوي الصحة البدنية والقوة الحيوانية ذوي الاعصاب والعضلات الحديدية والحمد ثم الحمد ثم الحمد لله. ان ما فاتني من الحياة اللامعة عرفته خلال الحياة الدامعة فالاثم والمرض والوحشة والحاجة هي اصدق الادلاء الى الحقائق الانسانية في نواحي الحياة جمعاء وقد واليت الدليل في الشرق وفي الغرب وتأبطت احد كتبه – كتاب الآلام – ثلاثين سنة وحملت في جيبي كتاب الوحشة على الدوام وحاولت ان احرق كتاب الاثم وامزق كتاب الحاجة فاخفقت وما استسلمت .....

اوصي اليكم اخواني في الانسانية البيض والصفر والسود على السواء شرقاً وغرباً .

١ – ان حق الشعوب في تقرير مصيرها لحق مقدس فاوصيكم بالجهاد في سبيله اينما كان .

٢ – ان الامة الصغيرة وهي على حق لاعظم من الامة الكبيرة وهي على باطل.

٣ – الامة القوية الحرة لا تستحق حريتها وقوتها ما زال في العالم امم مستضعفة مقيدة .

---

(١) طلب ان تنقل جثته الى امريكة وان تتلى وصيته في المأتم فلم تنقل

٤ – لا تبلغ الانسانية اعلى درجات الرقي ما زال نصفها مستعبداً واعلموا ان الاستعباد الاقتصادي في البلدان المستقلة الفنية هو شر من الاستعبادين السياسي والاقتصادي في البلدان التي لاتزال تحت سيطرة الاجانب ، اوصيكم بمحاربة الاستعباد اينما كان و كيفما كان .

٥ – الانتداب كما حدده وودرو ولسون الاميركي الخالد هو معقول مقبول ولكنه علمياً مكروه مرذول انه اخبث من الاستعمار فاوصيكم بجهاده حتى ينتهي. ثم ينتقل في الوصايا الباقية الى ابداء آرائه في الدين فيقول انه وحداني يعتقد ان جميع الانبياء من بوذا الى المسيح الي محمد الى بهاء الدين يعكسون النور الالهي، ويحض على التعلق بالروح دون المادة ثم يتكلم عن البلاد العربية وعن وسائل نهضتها القومية، يهاجم رجال الاكليروس المستثمرين لان الدين ليس الا صلة حية منيرة بين المخلوق والخالق ويبشر بالاخوة الانسانية قائلاً انه لا ينبغي ان يقتصر المرء على خدمة وطنه دون سواه بل عليه ان يخدم الانسانية جمعاء ويتحرر من جميع القيود الاجتماعية والتاريخية والدينية التي يرسف بها ولا يبقي الا قيد الحب الذي يدنيه من خالقه ويجعله جديراً بالانسانية .

تلك هي باختصار وصية الريحاني تنم كما لاحظت عن رجل مثالي واع اراد ان يحض على الواجب الانساني من خلال الثرى، فندد بالاستعباد والاستعمار والحيوانية بصراحة لا تعرف الهوادة ونادى عالياً مقتنعاً بالحرية والمحبة والمساواة، مبادىء شاء تحقيقها لدى الغير فعاشها اولا وجعل من ذاته وحياته قدوة لسواه انهـــا لعمري شيمة ابناء الخلود ! .

انتهى

ملاحظة : وقع بعض اغلاط مطبعية لا تخفى على القارىء اللبيب

قريباً...

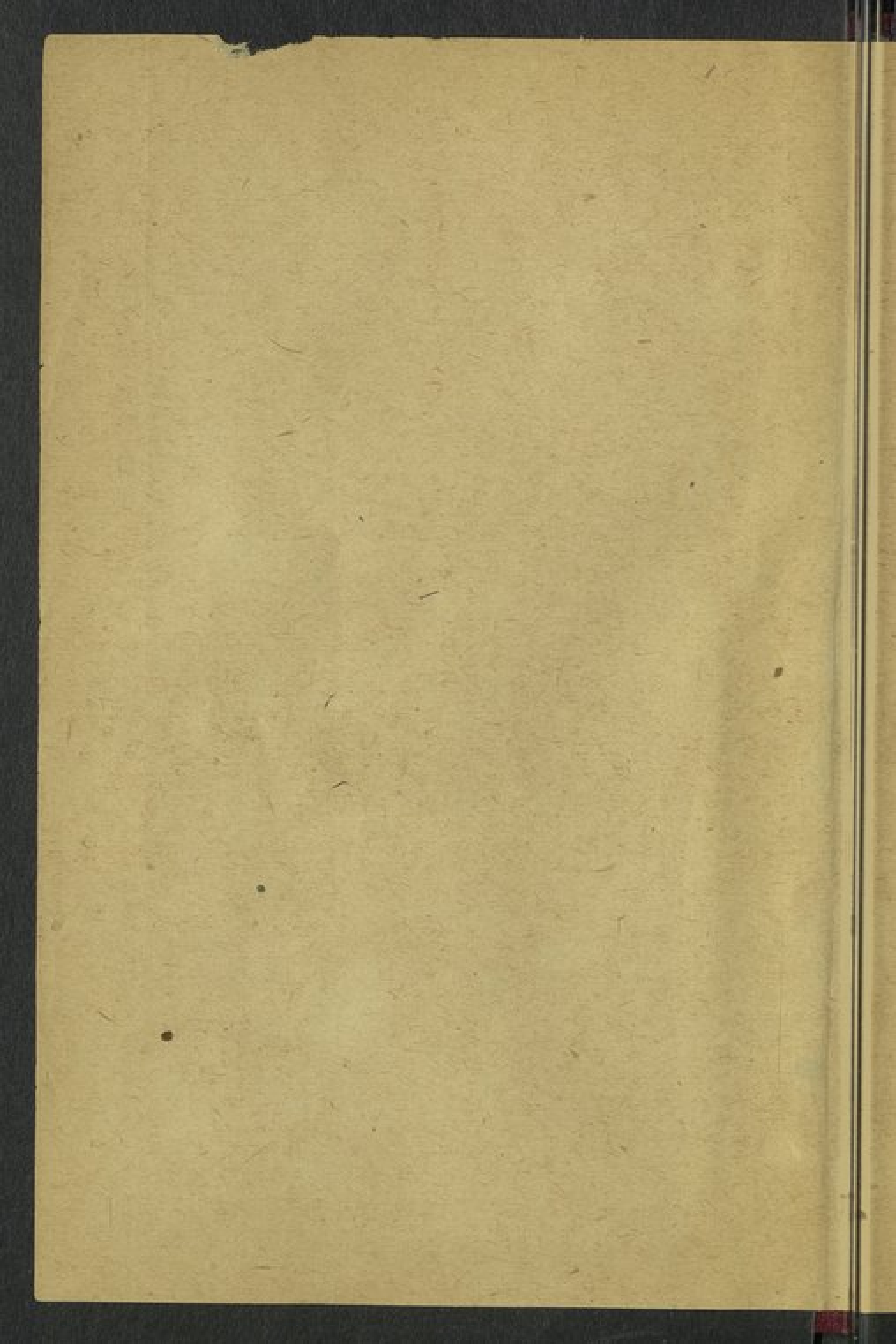
للمؤلف ذاته

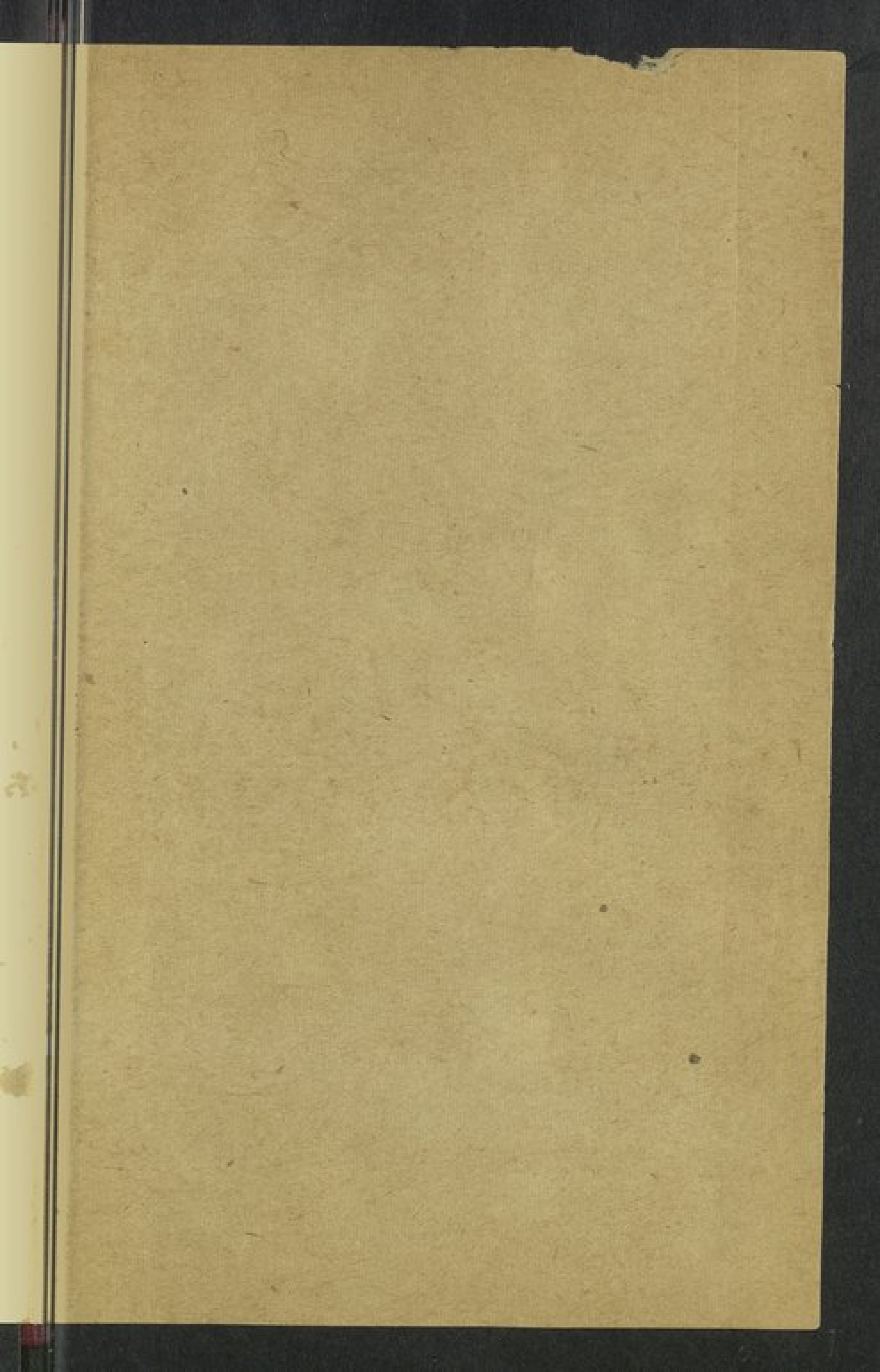
بين مي وجبران

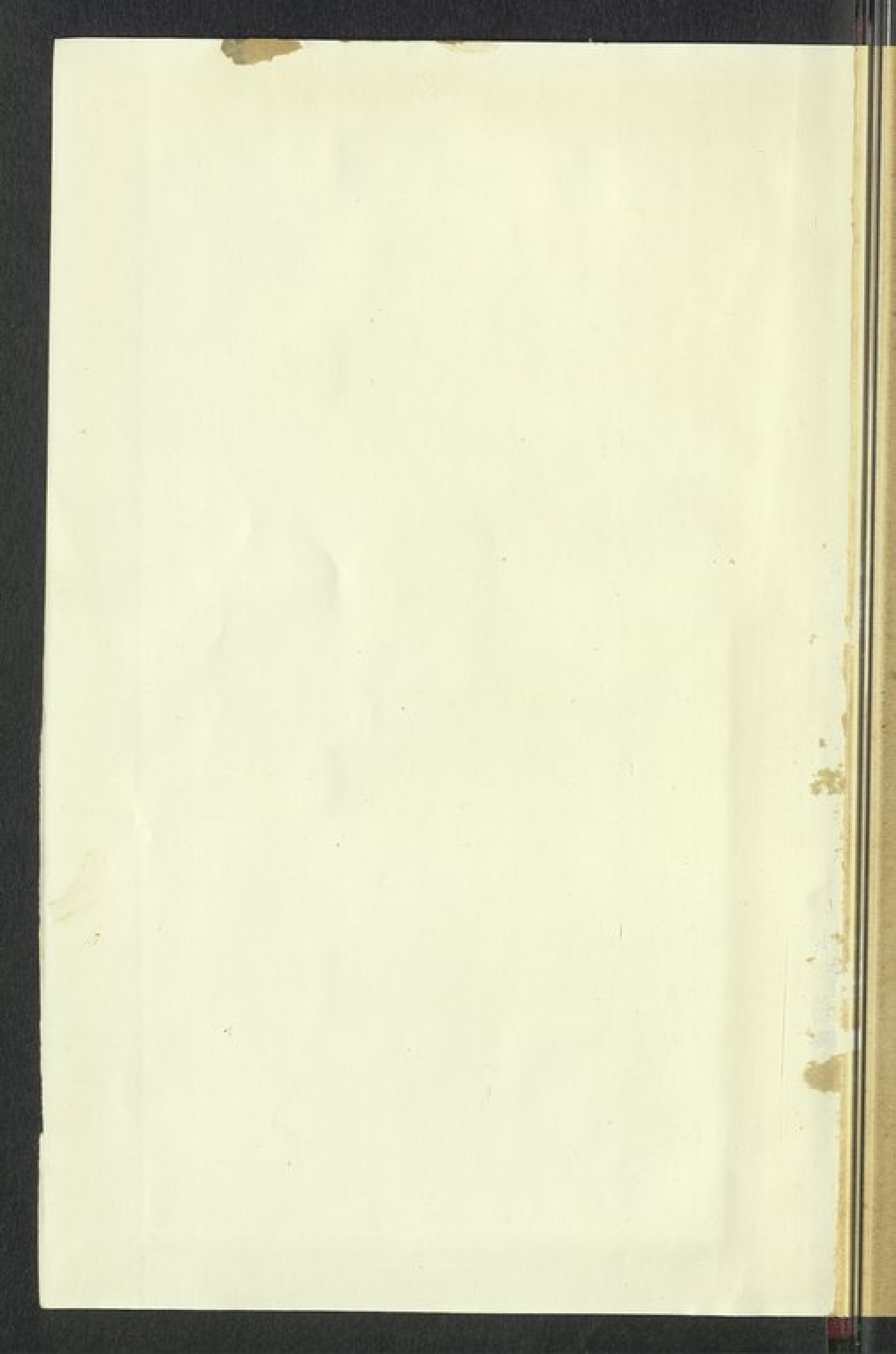
من الصميم

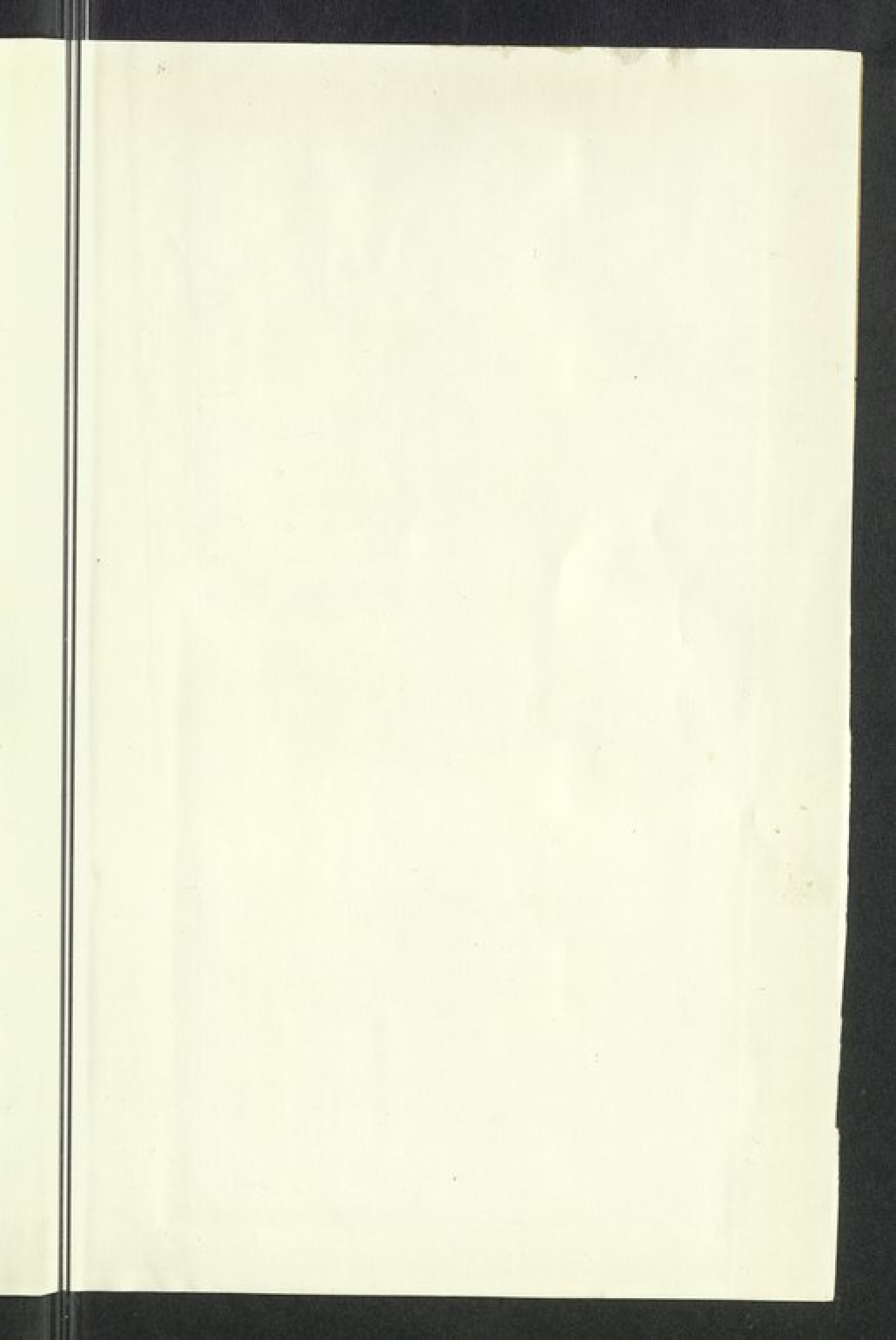
او نار جبران

في الادب العربي











DATE DUE

